الموسوعة الصغيرة

٥٣

مقدمة في تاريخ العربية

د. ابراهيم السامرائي

الموسوعة الصغيرة

(٥٣)

مقدمة في تاريخ العربية

د . ابراهيم السامرائي

منشورات وزارة الثقافة والاعلام

تشرين ٢/١٩٧٩ الجمهورية العراقية

تمهيـد

لعل العربية من احفــل اللغات بالدراسات التاريخية . لقد عنى المتقدمون عناية مستفيضة بنحوها وصرفها وموادها الاخرى حتى كان لنا من جملة ذلك خزانة عامرة تتصل بالعربية بوجه عام .

ثم جاء العصر الحديث فعقب أهل عصرنا على ما تركه لنا المتقدمون فكانت دراسات حديثة أفادت مما جد من وسائل الدرس وطرائق تناول الموضوع. غير اننا ما زلنا نفتقر أشد الافتقار إلى فهم علمي صحيح لتاريخ اللغة . ان شيئا كثيرا مما اشتملت عليه الخزانة اللغوية القديمة لم يعرض لحقيقة المشكلة اللغوية ، بل لعل الاقدمين لم يهتدوا الى حقائق مع اخلاصهم في البحث وانقطاعهم الى العلم بسبب موقف معين .

وسيكون من غرضي في هذه المشاركة الموجزة الوقوف على الحقائق التي ابتعد عنها المتقدمون بسبب منهجهم الذي اتبعوه . وبسبب تحرجهم من القول في لغة القرآن قولا لا يقدح في بلاغته ولا في اعجازه وانما يرضي العلم فيكون كلام الله بذلك دليلا

تاريخيا على مقدرة هذه اللغة على ادراك دقائق المعاني وان كانت مفرغة باسلوب اخفق أهل اللسن والبلاغة ان يحاكوه . ولن نستطيع أن نفهم العربية وكيانها بل اننا لا ندرك حجمها الحضاري ان لم نحسب للحدث القرآني الحساب الدقيق ، ذلك انه قد برهن ان العربية فيه قد تجاوزت حدود الانسانية المحضة . الا ترى انه ينبغي لنا ان نبدأ في معجمية تاريخية Levicographie معتمدين على لغة القرآن ذلك انها تزودنا بطائفة من المدلولات مما يكشف سعة العربية وقدرتها على تطوير الالفاظ والدلالات .

مقدمة في تاريخ العربية

كثر الكلام على سلامة اللغة ولابد ان يحفز ذلك الى القيام بدراسات جادة للوصول الى شيء من تاريخ العربية . ان الوصول الى سلامة اللغة يقتضي فهم المشكلة اللغوية التي لم يحسن تصورها ووضعها في المكان الذي ينبغي ان توضع فيه .

قلت : لابد من معرفة شيء من تاريخ العربية ذلك اننا نجهل الكثير من أولية هذه اللغة العالية . فكيف العمل ؟

هل لنا ان نعود الى الشعر الجاهلي ؟ لا أظن ان ذلك مجد في استكناه شيء مما نصبوا اليه من تاريخ لغتنا العريقة .

ان الدارس لمواد الشعر الجاهلي يخرج منها بنتيجة مضللة هي ان هذه النصوص لا تخلو من عناية وصنعة تجعلها لغة خاصة . اريد من ذلك ان الشاعر الجاهلي يلتزم في شعره بلغة خاصة تختلف عن لغة قبيلته التي ينتمي اليها ، هي لغة الشعر بموادها وتركيبها . ان هذه اللغة مادة وتركيبا

تلمسها في كل قصيدة جاهلية ، وكأنها صارت شيئا لابد منه في كل نظم ، جاهليا كان أم اسلاميا .

أقول : اذا كان الذي ورثناه من مادة الشعر الجاهلي يقدم لنا نموذجا لغويا موحدا ، فهذا يعني ان العربية قبل الاسلام بما يقرب من قرن ونصف قد عرفت « التوحيد » فكانت لغة المجتمع العربي القديم في المواطن العربية في شبه الجزيرة العربيــة مشتملة على أجزائها كلها .

ان العلم الصحيح لظروف بلاد العرب وتوزيع المجاميع البشرية فيها يفرض علينا 'ن نقول بوجود لغات عربية عدة . ولا أريد أن اسميها لهجات وذلك لانها وسائل جوهرية رئيسة يعرب بها المعربون .

اننا نعلم من لغات شبه الجزيرة العربية الشيء الكثير . ولقد سجل اللغويون الاقدمون مواد مهمــة اشتملت عليها مصنفات تعد وثائق تاريخية . غير اننا لا نجد من هذه المواد شيئا كثيرا في مادة الشعر الجاهلي . اننا نقرأ نصوص الشعر الجاهلي وهــي لشعراء كثيرين ينتمون الى قبائل شتى ، ولكننا لا نلمس شيئا يتصل بالفروق بين لغاتهم .

قد يضل الباحث فيذهب الى أن العربية الجاهلية كانت لغة موحدة يعرب بها كل العرب على اختلاف انتماءاتهم القبائلية ، غير أن الحقائق التاريخية تثبت ان شيئا من هذا لم يتم ولم يتهيأ للعربية بوجه عام كما سنرى .

ولن يغيب عن الباحث الجاد ان عربية التنزيل هي العربية السائدة في عصر النبوة. ان عربيةالتنزيل العزيز الذي نقرؤه الان شيء اتفق عليه وابعدت عنه عناصر كثيرة مما يتصل بلغات العرب . لقد اتفقوا على ما اسموه بالقراءات القوية العالية . وهذا يعني ان غيرها دعيت الضعيفة او الشاذة ، وقد حفلت هذه القراءات الشواذ بمواد مهمة تتصل بلغات القبائل والاقاليم والمجتمعات الخاصة وسنأتي على شيء من ذلك .

ولنعد الى لغة التنزيل العزيز في نصوصها التي أجمع عليها أئمة أهل القراءات وارتضاها أهل الرأي ودرج عليها المسلمون في أقطارهم المختلفة . ولا أريد أن أبحث في اعجاز هذه الآيات المحكمات ولا في بلاغة تلك اللغة العالية التي اخذ بها العرب لما اشتملت عليه من بيان رائع واحكام دقيق واصابة للدقائق من المعاني والافكار ، ولكني سأعرض لنماذج لغوية خاصة ، فاعرض لها عرضا تاريخيا .

لقد اختصت هذه اللغة الشريفة بنماذج من الاستعمال وقف منها أهل اللغة والنحو وقفة خاصة فحاولوا تفسيرها وتأويلها على نحو يبتعد عن الحقيقة اللغوية وتطورها التاريخي .

ولنعرض لطائفة من تلك المواد اللغوية التي لم يستطع أهل اللغة المتقدمون فهمهـا على الوجـه الصحيح :

العربية التاريخية

لقد عرفت اللغات السامية هذه الطائفة من الحروف واستعملتها لربط اجزاء الجملة القديمة بعضها ببعض كأيصال الفعل الى المفعول وهو ما اصطلح عليه في العربية ب « التعدي » ، أو كربط اسم باسم اخر . غير ان العربية تميزت عن سائر اللغات السامية الاخرى بوجود طائفة من هذه المواد مما لا نجد نظائره في تلك اللغات .

ثم ان هذه الحروف قد استعملت في فصيح العربية كما في لغة التنزيل وفي الشعر القديم استعمالات عدة فطن لها المتقدمون من علماء اللغة .

انه مما لا شك فيه ان الاوائل من علماء اللغة قد استقروا متن اللغة في المأثور من العربية شعرها ونثرها . ثم بحثوا في كلام الله ووقفوا عليه وقفات طويلة كما أشرنا . وكان من ذلك ان انتهوا الى مسائل ربما كانت سببا في حيرتهم وذهابهم في تأويلها مذاهب شتى .

ومن هذه المسائل استعمال حروف الجر .
انهم لمحوا ان لاي من هذه المواد استعمال كثر وروده في القرآن الكريم وفي غير القرآن الكريم من كلامهم .

غير أنهم لمحوا ايضا انها قد تستعمل فتنأى عن هذا الكثير الذي درجوا عليه في نظمهم ونثرهم وربما في الضرب السائر الذي يباشرونه في حياتهم اليومية من ضروب التعبير . ومن غير شك ان شيئا من ذلك عرض في لغة التنزيل .

فكيف رأوا المشكلة ؟ وكيف عللوا واولوا ؟

انها مشكلة كسائر المشكلات التي ذهبوا فيها فريقين : بصريين وكوفيين وطرفا اخر له راي خاص.

لقد منع البصريون انابة بعض الحروف الجارة عن بعض قياسا وهم يؤيدون رأيهم هذا بعدم نيابة حروف الجزم والنصب بعضها عن بعض ، فقد ذهب الزجاج النحوي الى انه لا يجوز ان يقال : ان بعض الحروف من حروف المعاني بمعنى الاخر ، ولكن الحرفين قد يتقاربان في الفائدة فيظن الضعيف العلم باللغة ان معناهما واحد وليس كذلك .

وهم يحملون ما قد يوهم من الحروف الى انه قد ضمن معنى حرف اخر على تضمين الفعل معنى فعل اخر يتعدى بذلك الحرف . وقد ذهبوا في

تفسير هذه الظاهرة فقالوا بالتوسع في الاستعمال ، وربما لجأوا الى التفسير البلاغي بشيء قليل او كثير من الصنعة والتكليف .

اما الكوفيون فأنهم لم يروا ما يمنع من القول بانابة بعض حروف الجر عن بعض بطريق الوضع أي ان الحرف عندهم يشتمل عند وضعه على أكثر من معنى .

وطريقة الكوفيين في فهم هذه الظاهرة وتناولها جرّات المتأخرين من النحويين على القول ان الحرف « في » مثلا ضمن معنى « على » فنشأ عندهم « التضمين » اللغوي .

أقول : كأن الكوفيين قالوا بـ « التضمين » بقولهم : بـ « انابة » غير أنهم اضافوا الى رأيهم ان التضمين هذا أو الانابة كانت « بطريق الوضع » . ومعنى هذا ان الحرف قد وضع لمعان عدة ، وهذا ما خالفوا به البصريين .

ولكنني ارى ان المتقدمين بصريين وكوفيين لم ينظروا الى المسألة نظرة تاريخية فيقطعوا بحقيقة علمية يفرضها التاريخ اللغوي .

أقول : ان استعمال أي حـرف من حروف الاضافة(١) هذه قد عرف في العربية . وان الفعـل العربي قد توصل الى الاسم الذي يليه بحرف معلوم دون غيره فاذا قيل : ذهب كان السامع متوقعا ان يأتي الحرف « الى » بعد هذا الفعل ، فان جاء حرف اخر غير « الى » فذاك يتصل باختلاف المعنى للفعل « ذهب » حينا وربما كان بسبب اخر سنعرض له الان .

ان اختلاف المعنى للفعل يؤدي الى ان يحتاج المعرب الى أدوات أخرى يفرضها المعنى . وليست العربية بدعا بين لغات العالم قديمها وحديثها فأنت تجد من هذا في كثير من اللغات .

ان الكلمة فعلا كانت او اسما تنصرف الـى معان عدة، ومن ثم فلابد لها من استعمالات مختلفة.

---

(١) أرى من الاصوب ان تستعمل مصطلح الكوفيين وهو حروف الاضافة بدلا من حروف الجر الذي درج عليه البصريون ذلك أنه الصق بالمفهوم اللغوي لهذه الحروف فهي حروف وصل وربط . أما القول ب « الجر » فانه يشير الى « الاعراب » فقد ذهب البصريون الى ان الكسرة في آخر الاسم كانت بسبب تقدم « عامل الجر » وهو الحرف .

قلت : لقد وردت كلمة «في» وهي من هذه الحروف التي يتوصل بها الى الاسم الذي يلي السابق له من فعل او اسم وهي تفيد كثيرا «الظرفية» فان وردت وهي تؤدي معنى « على » الظرفية على طريقة الاستعلاء فذاك أمر قليل غير كثير .

لقد وجد علماء اللغة شيئا من ذلك في لغة التنزيل فحاروا الحيرة وذهبوا في تأويل ذلك مذاهب عدة انتهت الى القول بالتضمين .

قال تعالى : « ولاصلبنكم في جذوع النخل » سورة طه ٧١ ، أي على جذوع النخل ومعنى هذا ان «في» جاء « في مكان على » كما ذهب ابن قتيبة الذي لم يشر الى التضمين وانما ذكر ذلك في « باب دخول بعض حروف الصفات مكان بعض » في كتابه تأويل مشكل القرآن ص ٤٢٦ .

ولم يكتف اللغويون بهذا التأويل وكأنهم شعروا ان هذا الاستعمال ينأى عن الكثير المتداول المألوف ولما كان في آي القرآن فلا يمكن ان يحمل على الشذوذ ، فكان ذلك مدعاة حيرتهم وذهابهم في التأويل الى ما اشرنا اليه . ثم راحوا يستقرون شعر العرب الجاهليين ليقفوا على نظائر هذا الاستعمال ليكون ذلك دليلا لهم ان ما ورد في لغة التنزيل لم

يخرج عن سنن العربية . وكان من استقرائهم أنهم وجدوا قول الشاعر :

وهم صلبوا العبدي في جـذع نخلـة
فـلا عطسـت شيبان الا باجدعـا

وقال عنترة :

بطل كأن ثيابـه في سرحـة
يحذى نعال السبت ليس بتوام

اي على سرحة من طوله .

ومثل هذا قالوا في « الباء » تدخل في مكان « عن » كما في قوله تعالى :

« فأسأل به خبيرا » سورة الفرقان ٥٩ ، اي عنـه .

وكأنهم وجدوا في الشـعر شيئا من هـذا الاستعمال وهو قال علقمة بن عبدة :

فلا تسألونـي بالنسـاء فانني
بصـير بأدواء النساء طبيب

اي عن النساء .

وقال ابن احمر :

تُسائل بابن احمرَ من رآه
اعارتْ عينه امْ لم تُعارا

ومثل هذا ما ذهبوا اليه من مجيء « عن » مكان « الباء » كما في قوله تعالى :

« وما ينطق عن الهوى » سورة النجم ٣ اي بالهوى .

واستدلوا بقول العرب : رميت عن القوس ، اي رميت بالقوس .

وقالوا دخلت اللام مكان « على » في قولـه تعالى :

« ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » سورة الحجرات ٢ . اي لا تجهروا عليه بالقول . واستدلوا بقول العرب : سقَطَ فلان لِفيه ، اي على فيه . وقال الشاعر :

تناوَلْتُ بالرمح الطويـل ثيابه

فخَرَّ صَريعاً لليَدَيْن وللفَـمِ

مثل ذلك وقوع « الى » مكان « مع » كما في قوله تعالى :

« ولا تأكلـوا اموالهم الى اموالكم » سـورة النسـاء ، اي مع اموالكم .

ومثله قوله تعالى ايضا :

« من انصاري الى الله » سورة آل عمران ، اي مع الله .

وتقول العرب الذَود الى الذَود اِبل ، اي مع الذود .

وكأنهم وجدوا ايضا شاهدا في قول ابن مفرغ :

شَدَخَتْ غُرَّةُ السوابق فيهم
في وجوهٍ الى اللمام الجعاد

أراد : مع اللمام الجعاد .

ومن هذا الباب وقوع اللام مكان « الى » كما في قوله تعالى :

« بأنَّ ربّك أوحى لها » سورة الزلزلة ، اي أوحى اليها .

وقوله تعالى :

« الحمد لله الذي هدانا لهذا » سورة الاعراف ٤٣ اي الى هذا .

ومثل هذا ايضا وقوع « على » مكان « من » كما في قوله تعالى :

« ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون » سورة المطففين ١ ، ٢ ، اي مع الناس.

لقد جاء في شعر صخر الغي مثل هذا قوله :

متى ما تنكروها تعرفوها
على أقطارها علق نفيث

اي من اقطارها .

ومنه ايضا قوله تعالى :

« من الذين استحق عليهم الاوليان » سورة المائدة ١٠٧ ، اي منهم .

ومن هذا ايضا وقوع «من» مكان الباء كما في قوله تعالى :

« يحفظونه من أمر الله » سورة الرعد ١١ ، اي بأمر الله .

وقوله تعالى :

« يلقى الروح من امره » سورة غافر ١٥ ، اي بأمره .

وقوله تعالى :

«تَنَزَّل الملائكة والروح فيها بأذن ربهم من كل أمر سلام » سورة القدر ٤ ، ٥ أي بكل امر .

ومنه ايضا وقوع الباء مكان «من» كما في قوله تعالى :

« عينا يشرب بها المقربون » سورة المطففين ٢٨ وقوله تعالى : « عينا يشرب بها عباد الله » سورة الانسان ٦ . ويكون بمعنى يشر بها عباد الله ويشرب منها .

قال الهذلي :

شربن بماء البحر ثم ترفعت
متىء لجج خضر لهن نئيج

وقال عنترة :

شربت بماء الدخرصين فاصبحت
زوراء تنفر عن حياض الديلم

ومن ذلك ايضا وقوع «من» مكان «في» كما في قوله تعالى :

« اروني ماذا خلقوا من الارض » سورة فاطر ٤ ، اي في الارض .

ومنه ايضا وقوع «من» مكان «على» كما في قوله تعالى :

« ونصرناه من القوم » سورة الانبياء ٧٧ ، اي على القوم .

ومنه كذلك وقوع «عن» مكان «من » كما في قوله تعالى :

« وهو الذي يقبل التوبة عن عباده » سورة الشورى ٢٥ ، اي من عباده .

ومنه ايضا وقوع « على » مكان « عند » كما في قوله تعالى :

« ولهم عليَّ ذنب » سورة الشعراء ١٤ ، اي عندي .

ومنه وقوع الباء مكان اللام كما في قوله تعالى:

« ما خلقناهما الا بالحق » سورة الدخان ٣٩ أي للحق .

ان جملة هذه الآيات التي استعملت فيها حروف الجر على النحو الذي لا نعرفه في استعمالها الشائع فكان مدعاة الى ان تحمل تفسيرات وتأويلات خلاصتها انها حلت محل حروف اخرى كوقوع «من» موقع « على » ووقوع « عن » موقع « من » وغير ذلك مما ذكرناه وأشرنا اليه ، اقول : ان هذه الظاهرة اللغوية لتشير الى ان اللغة العربية في عصر القرآن ما زالت تحتفظ بمظاهر لغوية تشير الى المراحل التي انسلخت من عمر هذه اللغة . تلك المراحل التي كان منها عدم استقرار استعمال هذه الادوات . ثم انها اخذت طريقها نحو التوحد والانسجام والخلوص الى ما يشبه الاستعمالات الثابتة التي بدأت تتضح في الاستعمال . ومن غير شك ان الاستعمال الذي كتبت له السيرورة والشيوع يصبح علامة من العلامات البارزة المميزة ، غير انه لابد ان يتخلف شيء قليل يعرض للمعربين وهو البقية الباقية من المراحل التاريخية السابقة . ان طريقة اللغويين الاقدمين في تناول هذه البقايا انهم حملوها على الشذوذ او على انها لغة من لغات القبائل او لغة جهة من الجهات او اقليم من الاقاليم .

غير أنهم حين وجدوا شيئا من ذلك في لغة التنزيل أخذهم شيء من الحرج فاحترزوا عما توهموا انه نيل من كتاب الله الكريم فاهتدوا الى هذا التفسير الذي أشرنا اليه على خلافهم من بصريين وكوفيين .

أقول ان هذه الاستعمالات التي وردت مخالفة للمشهور الكثير الذي حفلت به لغة القرآن ليس الا بقية باقية لاستعمالات هذه الادوات قبل ان تأخذ العربية طريقها الى ان تكون لغة قواعد ثابتة واستعمالات شائعة عامة .

ان الذي درجت عليه العربية الفصيحة في عصر القرآن ان تقرأ في قوله تعالى :

« وأوحى ربك الى النحل » سورة النحل ٦٨ ومثل هذا كثير في استعمل « الى » بعد الفعل « أوحى » فاذا قرأنا قوله تعالى « بأن ربك اوحى لها » من سورة الزلزلة ٥ ورأينا استعمال « اللام » مكان « الى » ادركنا ان هذا ومثله شيء اخر يشير الى ان العربية في آي القرآن الكريم ذات فائدة تاريخية نعرف منها ان سيرتها ادركت غاية عظيمة.

وليس في استنباط هذه الفائدة التاريخية من ضير يحمل على هذه اللغة العالية ولا ارى ان في هذا البحث التاريخي نبدا من كلام تحقق فيه الاعجاز

المحكم بحيث تهيأ للرسول الكريم ان يحكم المسلمين بهدي القرآن الذي أخرس فصحاء البلاغة وفرسان الكلام .

ولنعد الى مادة « التضمين » لنقول : ان اللغويين النحاة لم يقصروا التضمين على الادوات أي الحروف بل تجاوزوا ذلك الى الافعال .

قال الزمخشري : « ومن شأنهم ان يضمنوا الفعل معنى فعل اخر فيجروه مجراه ويستعملوه استعماله مع ارادة معنى المتضمن . قال : والغرض من التضمين اعطاء مجموع معنيين . وذلك أقوى من اعطاء معنى ، الا ترى كيف رجع معنى « ولا تعد عيناك عنهم » الى قولك : ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين الى غيرهم ، وكذلك قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالهم الى اموالكم » اي لا تضموها اليها آكلين .

أقول : وليس أهون على الباحث في عصرنا من تناول استعمال الفعلين « عدا » و « أكل » في الآيتين الكريمتين بغير طريقة التضمين التي عرض لها الزمخشري . الا ترى ان المجاز والتوسع ، وهما من طرائق العربية في العلاقة بين اللفظ والمعنى ، مما يمكن بهما ان تتناول طائفة كبيرة من الالفاظ . وان علم الدلالة (Sémautique) يعرض لهذا الموضوع في باب التطور اللغوي .

قلت ان استعمال ادوات الجـر في الآيـات الكريمة التي اشرنا اليها والتي فسرت على ان الادوات وقعت احداها موقع الاخرى ، من المخلفات اللغوية لمرحلة تاريخية اوشكت أن تزول وذلك لان استعمال هذه الادوات استقر على نحـو معروف شاع فـي استعمال المعربين كما شاع في لغة التنزيل .

وليست هذه الاستعمالات القليلة التي حملت على انها بقية للعربية القديمة هي العلامات الوحيدة التي تخلفت في العربية فقد اهتدينا الى شيء كثير من هذه الفرائد التاريخية التي لا سـبيل الى ان نقول الا انها بقية لعربية قديمة قبل ان تتوحد في لغة القرآن المجيد .

ولن نستطيع ان نفهم جوهر العربية ولا كيانها وثقلها الحضاري اذ لم نحسب للحدث القرآنـي حسابا دقيقا ونوليه الجزء الاوفى من عملنا اللغوي. ان آي القرآن الكريـم قد اثبت ان العربيـة قد تجاوزت حدود الانسانية المحضة .

ان البحث في تاريخ العربية يدلنا على الجهود التي بذلت كي تسود لغة التنزيل في وضوحهـا والتزامها بخصائصها ، لتكون لغة عامة يعرفها عامة العرب متخففة بماوسمتها به اللغات الخاصة التـي درج عليها جمع منهم وقرؤوا بها ، فقد ورد ان عمر

ابن الخطاب قد سمع رجـلا يقرأ « عتىّ حين » في قوله تعالى : « ليسجننه حتى حين » (سوزة يوسف ٣٥) ، فقال : من اقراك ؟ قال : ابن مسعود ، فكتب اليه : ان الله انزل هذا القرآن عربيا ، وانزله بلغة قريش ، فاقريء الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل .

وما استطاعت لغة القرآن والحديث ان تأتي على الدارج من اللغات الخاصة ، تلك اللغات التي ابقت في العربية الفصيحة العامة آثارها التي أشرنا الى طرف منها . وها نحن نستوفي تلك الاثار التي حسبناها مخلفات لغوية لم يستطع المعـربون ان يلغوها في عربيتهم طوال العصور الاسلامية .

ومن تلك الاثار شيء يتصل بأصوات العربيـة وطريقة أدائها . ان الكلمة العربية جرت على مبان خاصـة Schèmes اجتمعت فيها الاصـوات الصامتـة Consonnes والاصوات الصائتـة Voyelles اجتماعا اشتمل على التناسـب والتوافق ، فلست واجـدا صوتا من الاصـوات الصامتة الا وجدتـه مسبوقا او متلوا بصوت من الاصوات الصائتة . ثم انك لا تجد صوتا صامتـا متلوا بآخر صامت كما يحدث في طائفة من اللغـات سامية وغير سامية . ثم انك لا تجد كلمة عربيـة

بدئت بصوت صامت الا اتبع بصوت صائت . وهذا يعني في لغة النحاة ان العرب لا يبدؤون بالساكن وانما يبدؤون بالمتحرك . غير أننا واجدون في العربية الفصيحة جملة ابنية تومىء الى انها بدات بصوت صامت لم يتبعه متحرك اي انها بدئت بالسكون نحو : ابن واسم ، واستخرج ، والتمس ، وانهزم وفعل الامر من الثلاثي نحو اضرب .

ان هذه الالفاظ قد بدئت بصوت صامت Consonne وهي الباء والسين والشين واللام والنون والضاد . وهذه الاصوات ساكنة غير متحركة أي أنها لم تتبع بحركة(١) . وهذا ما سمي في كتب النحو القدم ب « البدء بالساكن » . ولما استوفت العربية حظها من النضج والتوافق بين الاصوات الصامتة والاصوات الصائتة (الحركات) ، انساق المعربون الى أن تأخذ هذه الالفاظ ونظائرها طريقة العربية من حيث البدء بالمتحرك لا الساكن فألحقت بهذه الاصوات الصامتة نوعا من الهمزة بشيء من صوت مختلس أو مخطوف يستعان به الى الوصول الى الصوت الصامت الذي بدات به بنية الكلمة .

---

(١) الحركات في العربية وهي الفتحة والكسرة والضمة على اختلافها في الطول والقصر هي اصوات صائتة أي انها كالاصوات اللينة او المد في طبيعتها كالياء والواو والالف .

قال الخليل بعد تمثيله للخماسي من الافعال : « الالف التي في اسحنكك واقشعر واسحنفر واسبكر ليست من أصل البناء ، وانما ادخلت هذه الالفات وامثالها من الكلام لتكون عمادا وسلما للسان الى الحرف الساكن »(٢) .

وسأل الخليل جماعة فقال : كيف تلفظون بالحرف الساكن ، نحو ياء غلامي وباء اضرب ودال قد ؟ فقالوا له : نقول : ياء وباء ودال ، فلم يرض اجابتهم لانهم لفظوا بالاسم ولم يلفظوا بالحرف ولم يحكوه كما هو في غلامي واضرب وقد . فقال لهم : اقول : ابْ وايْ وادْ ، فألحق الفا موصولة . قال : كذلك اراهم صنعوا بالساكن الا تراهم قالوا : ابن واسم حيث أسكنوا الباء والسين ، وانت لا تستطيع ان تتكلم بساكن في أول الاسم كما لا تصل الى اللفظ بهذه السواكن فالحقت ألفا حتى وصلت الى اللفظ بها ، فكذلك هذه الالفات حتى تصل الى اللفظ بها كما الحقت الساكن الاول في الاسم » .

ان اضافة الالف في اول هذه الالفاظ شيء يستعان به الى الوصول الى الساكن . ومن أجل ذلك تختلس حركة هذه الالف فكأن الناطق بـ « اضرب » فعل الامر من « ضَرَبَ » ينطلق بالضاد فلا تحس اثرا واضحا كل الوضوح للالف الاولى .

---

(٢) الجزء المطبوع من العين ص ٢ .

ولعل المغاربة من العرب في عصرنا ينطقون الساكن الاول ويلغون الفاءً تاما ، هـذه الالف العماد او السلم ، ذلك أنهم ينبرون الجزء الاخير او المقطع الاخير في الكلمة .

ووجود هذه الظاهرة اللغوية قد يكون دليلا على ابتداء بالساكن في العربية التي سبقت هذه المرحلة الفصيحة . ومما يقوي هذه المقولة جواز النطق بالساكن في كثير من اللغات السامية ، وهذا يعني ان تلك اللغات لم يتهيأ لها من النضج في اصواتها وادائها ما تهيأ للعربية التي ظلت حية قائمة في حين ان سائر اخواتها الساميات قد ضعف بل اندثر وعفي عليه الزمان .

ومن هذه الظواهر الصوتية شيء يتصل بمقطع طويل يعرض لبنية الكلمة فيؤدي الى طول يخرجها عن نمط الكلمات المتوافقة في مقاطعها. وهذا ما يعبر عنه اللغويون المتقدمون بالتقاء الساكنين .

كما في « حَمارَّة » و « صَبارَّة » في قولهم : حَمارَّة القيظ وصَبارَّة القر .

ومثل هذه اسماء الفاعلين من المضعف الثلاثي نحو مادّ وجافّ واسم الفاعل من المضعف على فاعَلَ وتفاعل نحو شادّ ومتضامّ وغير ذلك من الابنية التي تعتمد على الضعف اصلاً ثلاثياً وغير ثلاثي .

ان طريقة العربية في هذه الالفاظ ان تصير الى الأدغام ، والادغام يؤدي الى هذا المقطع الطويل الذي عبر عنه بالتقاء الساكنين . والذي يبدو لي ان من العرب من كان يجيز الجمع بين المتجانسين من الاصوات فلا يلجأ الى الادغام وعلى هذا جاء قول المتنبي :

فلا يُبرم الأمر الذي هو حالل . . . . .

وفك الادغام هذا مما عيب عليه المتنبي ، وما أظن ان النقاد على حق في تخطئة المتنبي لانه تجاوز المألوف من القاعدة الصوتية . ومن الاكيد الثابت ان المتنبي عارف بهذه الحقيقة اللغوية ، ثم انه ليس مضطرا ان تحمله الضرورة الشعرية هذه المحمل . وكان في طوقه ان يتحاشى هذه الضرورة ـ ان صحت ـ باستعمال مرادف للكلمة « حالل » وهو شيء متيسر . اما الذي سوّغ له ان يتجاوز المألوف الشائع من القاعدة الصوتية ان ذلك جائز بل معروف في لغة من لغات العرب هربا مما عرف بالتقاء الساكنين .

ولعل التقاء الساكنين أوضح ما يكون في الكلمات الثلاثية على « فَعْل » او « فِعْل » او « فُعْل » نحو نَهْر وطِمْر وقُفْل . والتقاء الساكنين هما الوسط والصوت الاخير ان لم

تستعمل الكلمة في جملة او يوقف على الحرف الاخير منها . في هذه الحالة لم تحتمل العربيــة في بعض لغاتها واقاليمها هذه الصعوبة المتأتيّة من اجتماع الساكنين فينطلق المعرب بتحريك عين الكلمة بحركة مناسبة لحركة الفاء فيقال : نَهْرٌ ونَهَر وطِمْر وطِمِر وقُفْل وقُفُل .

وقد عرض المبرد في « الكامل » لمادة « فخذ » فأشار الى نُطق «فخذ» «باسكان الخاء وكسره»(١) وفي « المحتسب » لابن جني : « ما سمع فيه «فعل» بضم الفاء واسكان العين الا وسمع فيه « فعل » بضم الفاء والعين »(٢) .

والدافع الى هذه الحركة الهرب من اجتماع صوتين صامتين غير متحركين . على اننا نجد في عاميتنا البغدادية بوجه خاص والعراقية بوجه عام اننا نلجأ الى شيء من هذا فنقول « فعل » بكسر العين مجاراة لكسرة الفاء ومثله «اسم» و «عجل» . ونقول « تمر » و « قبر » بضم الميم والباء في حين ان المصري ينطق جميع هذه الالفاظ باسكان عين الكلمة فيها احتمالا منه لاجتماع ساكنين في كلمة واحدة .

---

(١) الكامل ١١٤/٢ .

(٢) المحتسب ١٩٠/١ .

واذا استقرينا الابنية الفصيحة القديمة وجدنا بناء « افعالّ » مثل « احمارّ » من الافعال المزيدة وهذا الضرب من الافعال قليل الورود ، وقلته تشير الى انه بقية قديمة لافعال كانت شائعة على هـذا الوزن . ولعل بسبب ثقلها وما يعرض لها من هـذا المقطع الذي اشرنا اليه تخففت منه العربية الفصيحة فصار « احمارّ » « احمرّ » ومثله غيره وهو يؤدي في المعنى وافادة الزيادة والمبالغة ما يؤديـه وزان « افعالّ » .

ومما تخلف في العربية الفصيحة مما يعد آثارا لمرحلة لغوية سابقة ما يعرض لاوزان الفعل الثلاثي مما هو خارج على النظام المشهور . ان المعروف في الفعل الثلاثي انه يتبع اوزانا ستة بحسب حركـة العين في الماضي والمستقبل . والافعال مرتبة حسب ورودها من حيث الكثرة والقلة ، فما كان مفتوحَ العين في الماضي مضمومها في المستقبل نحو نَصَرَ ينصُر هو اكثر افعال العربية ، ثم يليه في الكثرة ما كان مفتوحِ العين في الماضي مكسورها في المستقبـل نحو ضَرَبَ يضرِبُ وهكذا تنتهي هذه الاوزان بما كان منها مكسور العين في الماضي والمستقبل نحو حَسِبَ يحسِبُ . غير ان الناظر في كلام المتقدمين مما اشتملت عليه كتب اللغة والادب يجد فيها شيئا يتجاوز هذا النظام المتبع مما يحمله على الاعتقاد بأن

هذه الافعال لم تكن مستقرة على هذا النحو المرتب ولا سيما في القرنين الاول والثاني الهجريين . ولا نعدم ان نجد من الافعال ما قد يكون من الوزن الاول (باب نَصَرَ) عند قوم ، وهو من (باب ضَرَبَ) عند اخرين . ولعل هذه الحالة من عدم الاستقرار لم تنته الا بعد ان انسلخ القرن الثاني للهجرة وتم للعربية استقرار وثبات في حالة تشبه القاعدة العامة ولا يبعد ان يكون هذا الاستقرار قد عرف في المشهور المتداول من الافعال في الاقل أما غير المشاهير فلا بد ان تكون قد استمرت على حال من عدم الاستقرار .

والى هذا أشار ابو زيد الانصاري ــ من علماء اللغة المتقدمين ــ فقال : اذا جاوزت المشاهير من الافعال فأنت بالخيار بين الضم والكسر(١) . وقال الفراء : الاصل في المضارع الكسر(٢) .

ولعل مما ساعد على ضبط هذه الاوزان وارساء الافعال فيها عنايتهم بالقرآن وضبط لغته والتزام ما استحسنوه من وجوه قراءاته . غير ان كتب اللغة ظلت تثبت اللغات المختلفة في وزن الافعال التي اختلفوا فيها ، فقد قالوا في (فسد) هو من باب (نصر) عند قوم ، وهو من باب (كَرُم) عند

---

(١) انظر مقدمة القاموس المحيط .

(٢) لسان العرب (اتى) .

اخرين . ثم انهم ضبطوا اوزانا لا تدخل في عداد الاوزان الستة فقد ذكروا (فَضِل يفضُل) بكسر العين في الماضي وضمها في المستقبل فاجتهدوا بشيء كثير من التكلف في تفسيرها وحمل ما جاء من ذلك على (تداخل اللغات) . ان مسألة التداخل شيء لا تقره طبيعة اللغة .

اما التفسير الحقيقي لهذه الظواهر هو التفسير التاريخي اي ان الافعال العربية قبل ان يكون لها نظام الاوزان الستة عرفت حالة من عدم النظام والاستقرار ثم جنحت مع مرور الزمان الى شيء من النظام فانتهت الى ما انتهت اليه .

ولعلنا نلمح من هذه الآثار التاريخية في العربية شيئا اخر يتصل بمواد المعجم القديم وسنعرض له ، ومنه ما يتصل بأبنية الجموع . وانت تستطيع ان تجد في نصوص العربية الفصيحة كما في لغة التنزيل ان المثنى قد استعمل استعمالات خاصة كأن تكون مطابقة بين المسند اليه وهو مثنى والفعل الذي يليه وهو مسند ، ولكنك تجد شيئا تنعدم فيه هذه المطابقة .

من تاريخ لغة القرآن

ان البحث في تاريخ القرآن يدلنا على ان لغة القرآن قد طبعت العربية بطابع واضح مبين وقضت بذلك على آثار اللهجات الاقليمية . وأريد ان اخلص الى ان هذه اللغة العالية قد استقرت وانها التزمت الاعراب الذي لم يكن شائعا ومستعملا على نحو ما التزمت به نصوص القرآن وسنأتي على اثبات هذا الرأي . ومعنى هذا ان العربية في لهجاتها المتعددة لم تكن متقيدة بهذه الضوابط الثقيلة ، ولكن هذه اللغة هي التي جعلت الاعراب السمة الملازمة للعربية، التي اريد لها ان تكون كذلك .

والبحث في تاريخ القرآن يدلنا على الجهود التي بذلت كي تسود لغة التنزيل في وضوحها والتزامها الاعراب ، وقد اشرنا الى خبر قراءة ابن مسعود حين سمعها عمر بن الخطاب .

وما استطاعت لغة القرآن والحديث ان تأتي على نهاية للهجات الدارجة وهي لغات القبائل والاقاليم ، او قل على العربية المستعملة السهلة

التي تتخفف من القيود الثقيلة للضوابط . ومن هنا عرفت العربية الازدواجية منذ اقدم عصورها ، ذلك بأن فيها لغة فصيحة يتوخاها الكاتب في كتابته ، ملتزمة بضوابط الاعراب ، ولغة أخرى يقولها الناس ويستعملونها دون أن يلزموا انفسهم بعناء هــذه الضوابط ، وربما تجاوز الامر مسألة الاعراب الى الالفاظ نفسها ، فقد يكون في الفاظ الثانية ما هو بعيد عن العربية . ان ذلك من الدخيل الذي اضيف اليها نتيجة اتصال العرب انفسهم بغيرهم من الامم. ومن اجل ذلك حرص عمر على الاخذ بقراءة تعتمد على لغة قريش ، والى مثل هذا كان يرمي عثمان من جمعه القرآن ليكون المسلمون مجتمعين على قراءة واحدة فينبذوا ما كان عندهم مما هو مغاير لما اتفق عليه . ولا يعدم الباحث ان يجد في كتب التفسير والقراءات وكتب الغريب وكتب النحو من هذا الباب شيئا كثيرا من القراءات . ومرد ذلك ان الناس قد فطروا على أساليب في التعبير خاصة بهم ، وبذلك كانت قراءتهم . ان طائفة كبيرة من هذه القراءات الخاصة اعتبرت من شواذ القراءات . ان الشواذ من القراءات هي ما خلا تلك التي اختارها ابن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٢ هـ . وقد ألف غير واحد من المتقدمين في القراءات الشاذة كابن خالويه وابن جني وغيرهما .

ولعل كثيرا من مواد القراءات الشاذة راجع الى اللغات السائرة وهي ما نسميها في عصرنا بـ « اللهجات الدارجة » .

وانا ذاكر نماذج من الوان هذه القراءات :

جاء من شواذ سورة الفاتحة :

قرأ ابو السوار الغنوي : « هياك » بالهاء المكسورة في الآية الخامسة « اياك نعبد » .

وقرأ عمر بن فايد : « اياك » بالتخفيف .

وقرأ جناح بن حبيش : « نستعين » بكسر النون .

وجاء في شواذ سورة البقرة :

قرأ يحيى بن وثاب : « ولا تقربا هذه الشيرة » بكسر الشين والياء ، حكاه ابو زيد . وقراءة « الشيرة » بابدال الياء من الجيم اثبات لظاهرة لغوية في لغة قبيلة او قبائل معينة . وهذا الابدال ما زال معروفا في لهجات دارجة في قرى جنوبي العراق .

وقرأ مسلمة بن محارب : « وبعولهن » من قوله تعالى : « وبعولتهن أحقّ بردِّهِنَّ » بجزم التاء ، ومن المعلوم ان « البعولة » جمع بَعْل ثم الفحولة والسهولة جمعا فحل وسهل .

وأرى ان اختلاف القوم في صيغ الجموع ، راجع الى اللغات الخاصة او اللهجات الاقليمية . ولعل بسبب من ذلك كثرت أبنية جموع التكسير مثلا في العربية على نحوٍ لا نجده في اية لغةٍ سامية .

وجاء في شواذ سورة المائدة :

قرأ بعضهم : « لعباً » بكسر واسكان العين في قوله تعالى : « واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً » .

وجاء في شواذ سورة الاعراف :

قرأ ابن عباس : « الجُمَّل » بضم الجيم وفتح الميم مع التشديد في قوله تعالى : « حتى يلج الجُمَّل في سَمّ الخياط » .

ومن المعلوم ان بناء « فُعَّل » من ابنية جمع التكسير (بضم الفاء وفتح العين مع التشديد) لا يكون مفردها الا فاعلاً نحو « راكع » وجمعها « رُكَّع » في حين ان « جُمَّل» مفردها « جُمْل » بضم فسكون ومعناه الحبل .

وقرأ ابو السمال : « الجمل » بفتح فسكون .

وجاء في شواذ سورة طه :

قرأ عكرمة : « اهس » بالسين في قوله تعالى : « اهشّ بها على غنمي » .

ومن المعلوم ان الابدال بين السين والشين من صفات اللغات الخاصة .

وجاء في شواذ سورة الانبياء :

قرأ ابن عباس : « حَضب » بالضاد في قوله تعالى : « انكم وما تعبدون من دون الله حضب جهنم » .

وقرىء بالطاء « حطب » وفي الرواية المثبتة في المصحف الشريف « حصب » بالصاد .

وجاء في شواذ سورة الحج :

قرئت « صلوات » احدى عشرة قراءة في قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله » .

والقراءات هي : صَلَوات (بفتحتين) وصُلُوات (بضمتين) وهي قراءة ابي العالية والكلبي والضحاك . وصُلْوات (بضم فاسكان) وهي قراءة ابي جعفر بن محمد .

وصلون (بضم الصاد فلام فواو ونون) . وصلوب (بالباء) وصلوت (بفتح الصاد) وصلوثا (بثاء في الآخر مع الف الاطلاق) .

والكلمة جمع صلاة وهي تعني الكنيسة والكلمة سريانية بخلاف ما ذهب اليه الزمخشري من انها عبرانية .

ونستطيع ان نوجز ان القراءات في القرآن تقدم على تغيير في الحركات وتغيير في الابنية وتغيير في الاصوات والالفاظ بوجه عام . ومن مجموع هذا نستدل على ان طرق التعبير الخاصة وجدت طريقها الى لغة التنزيل ، فلم تجد الجهود التي بذلت من أجل التوحيد .

ويختلف القراء حتى في موضوع الاعراب الذي التزمه جميعهم ، فهذا يرفع ما ينصبه غيره ، وذاك يخفض ما يرفعه هذا . وقد حمل هذا على أنه خطأ من كتاب الوحي .

روى ابو معاوية محمد بن خازم التميمي السعدي المتوفي سنة ١٩٣ هـ عن هشام بن عروق ابن الزبير المتوفي سنة ١٤٦ هـ عن أبيه عن عائشة انها قالت :

« ثلاثة أحرف في كتاب الله هُنَّ من خطأ الكاتب » وهي :

وقوله تعالى : « ان هذان لساحران » سورة طه ٦٣ .

وقوله تعالى : « لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك،والمقيمين الصلاة ،والمؤتون الزكاة » سورة النساء ١٦٤ .

وقوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون » سورة المائدة ٦٩ .

ولا أرى ان يكون هذا من خطأ الكاتب ولكني أرى ان العربية في عصر القرآن ما زالت مفتقرة الى الاستقرار في نحوها وصرفها وموادها الاخرى وان كان قدر كبير من مظاهر الاستقرار قد تحقق . ولم تكن هذه الآثار الباقية التي خالفت المشهور المعلوم الا البقية التي لابد ان تبقى بين مرحلة واخرى .

ولم يقبل المعنيون بالدراسات القرآنية من الاوائل بحديث « خطأ الكاتب » ولا بما اشتهر من حديث عثمان « ارى فيه لحناً » ، بل اعتلوا لكل حرف منها واستشهدوا الشعر فقالوا في « ان هذان

لساحران » هي لغة بلحارث بن كعب فهم يقولون : مرات برجلان ، وقبضت منه درهمان ، وجلست بين يداه ، وركبت علاه ، وانشدوا لهوبر الحارثي :

تزوَّد منا بين أذناه ضربةً
دعته الى هابي التراب عقيم

كما اعتلوا لسائر المواضع السابقة علة مناسبة.

وما اظن ان اللحن الذي شاع في العصور المتقدمة من الاسلام كان بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الامم دون أسباب أخرى ذلك أني أرى ان اللحن الذي يتصل بالاعراب كان بسبب ان اللغة في عصر القرآن لم تستقر في حدود وضوابط محددة. وشيوع اللحن بين مختلف الطبقات دليل على انه قيد ثقيل لا تحتمله سليقة العرب اللغوية . ومن اجل هذا شاع اللحن فلم تسلم منه طبقة المتعلمين ولا العلية من القوم ولا العلماء . وقد أثر عن كثير من المحدثين والعلماء والرواة واهل الادب أنهم كانوا يلحنون .

ان شيوع اللحن وما علمناه من وجود اللغات الاقليمية الخاصة في العصور الاسلامية الاولى بل في عصر القرآن ليدفعني الى التساؤل عما نشهده من اللغة المنسجمة الموحدة في نصوص الشعر الجاهلي .

أقول : كأن لغة الشعر الجاهلي لغة خاصة وهي مادة مشتركة بين الشعراء الجاهليين ، او قل ان للشعراء في الجاهلية والاسلام مادة من عربية مشتركة لابد ان يتزود بها من يباشر هذا الضرب من الادب . ومن أجل ذلك لم يكن بد للباحث المؤرخ من العزوف عن هذه الجمهرة الكبيرة من النصوص الجاهلية ذلك انها لا تقدم له فوائد كثيرة يستطيع ان يقتبس مادة تاريخية . لقد عرفنا ان لغة القرآن وما عرض لها في تاريخ القرآن من فوائد هي خير ما يتزود به الباحث في موضوع تاريخ العربية .

في المعجم العربي القديم

لقد عني الباحثون اللغويون في العصر الحديث بموضوع تاريخ اللغات وفاءً لعلم اللغة التاريخي العام ولعلم اللغة المقارن ، ولقد كان من ذلك ان حفل العلم اللغوي بدراسات ذات قيمة في تاريخ اللغات ولا سيما لغات الشعوب المتقدمة . ويهمنا ان نعرض لشيء من تاريخ العربية على نحو ما تم انجازه من الدراسات الحديثة في عصرنا الحاضر .

اقول : ربما كانت العربية بدعا بين اخواتها اللغات السامية وذلك لاننا نعرف من أمر تاريخ اللغات شيئا يفوق ما نعرفه من بدايات العربية . اننا نعرف مثلا كثيرا من النصوص البابلية والاشورية والاكدية ، كما نعرف قدرا عظيما من اللغة الارامية ولهجاتها ، وقل مثل ذلك عن نصوص اللغة العبرانية وسائر اللغات السامية الاخرى ما خلا العربية .

أقول : ما خلا العربية ذلك أني اعلم ان بين يدي الباحثين نصوصا من العربية الجنوبية في نقوش جنوبي الجزيرة العربية وشماليها كما في النقوش القتبانية واللحيانية والثمودية .

وليس في طوق الباحث ان يتخذ من هذه النصوص البدايات الاولى في تاريخ العربية ، فلا يمكن ان تكون نقوش معين وسبأ وحمير في الجنوب، ولا النقوش القتبانية واللحيانية والثمودية في شمالي الجزيرة أصولا تطورت الى العربية الفصيحة التي عرفناها في نصوص الادب ولا في النصوص التي تفصح عن اللهجات العربية . ان النصوص الاولى التي اشرنا اليها بعيدة كل البعد من حيث التطور عن النصوص الجاهلية ، ذلك ان الباحث في تلك النصوص ليقف ازاء مادة لغوية بعيدة كثيرا من حيث مبناها ومعناها عما تفصح عنه نصوص الادب الجاهلي مثلا .

لقد ادركت العربية الجاهلية الممثلة بنصوص الشعر الجاهلي مستوىً عاليا من حيث الاسلوب فقد اشتملت على صيغ ومبان هي من الاتقان والاحكام بحيث تهيأ منها ان يكون للعرب موازين واقيسة في الشعر هي الغاية في الضبط والتدقيق من حيث الناحية الموسيقية . وليس أدلّ على ذلك من ان هذه الموازين والاقيسة بقيت المثال الذي يحتذى في موسيقى الشعر طوال عصور عدة . ولم يستطع أهل العصور التي تلت ان يضيفوا الى موسيقى الشعر شيئا . اقول : لم يتأتَّ لاولئك الجاهليين ان يحذقوا ذلك الفن الا بعد أن كانت مواد

العربية في صيغها وأبنيتها قد استوفت غايتها من الضبط والاحكام . ولو وازنا بين ابنية العربية ونظائرها في اللغة العبرانية او في سائر اللغات السامية لوجدنا ان الابنية في لغتنا القديمة جاءت منسجمة ، مشتملة في حركاتها وسكناتها والتئام اصواتها بعضها ببعض على ما أتاح للجاهلي القديم ان ينظمها شعرا لا نجده في لغة سامية اخرى .

ثم اذا جئنا الى ما اشتملت عليه تلك النصوص الجاهلية من معان وجدنا أنها حفلت الى جانب ما يفصح عن حياة البداوة وعاداتها ورسومها بمعان تدل على ادراك دقيق للحياة في خيرها وشرها . وليس أدل على ذلك من الاشارات الكثيرة التي حفلت بها مطوّلة زهير بن ابي سلمى مما يدل على فهمه لكثير من المعاني الانسانية ، ومثل ذلك نجده في سائر النصوص الجاهلية .

أقول : اذا كانت القصيدة الجاهلية قد ادركت في مبانيها ومعانيها هذا القدر السامي من الاجادة في البناء الموسيقي والتوفر على شيء كثير من الفكر الانساني ، فلابد ان تكون المواد الادبية الجاهلية قد تطورت تطورا عظيما ، ومن ثم فلابد ان تكون قد سبقت هذه المرحلة من النضج مراحل اخرى لا نعرف عنها شيئا .

ولو اتيح لنا ان نوازن بين ما أثر من الوان العربية القديمة الممثلة في النصوص الجنوبية ، وهي لغات النقوش في معين وسبأ وحمير ونظائرها من العربية الجنوبية في شمالي الجزيرة وهي اللغات القتبانية واللحيانية والثمودية ، وبين نصوص الشعر الجاهلي لاتضح لنا بعد الشقة بينهما . ومعنى هذا لا يمكننا ان نعدّ تلك اللغات القديمة الممثلة بالنقوش الاصول المفقودة التي كانت الاساس الذي تطور في نصوص الشعر الجاهلي . ومعنى هذا ايضا لابد من القول : ان حلقات عدة من النصوص قد ضاعت ففصلت بين الاصول وبين ما نجده من حال العربية في نصوص الشعر الجاهلي .

بعد هذه المقدمة الموجزة لابد من البحث في المأثور من العربية القديمة فنعرض لموادها مستقرين فاحصين لنرى ما عرض لها من التزيد والافتعال الذي لا بد لنا من كشفه حتى نتبين الصحيح من هذه اللغة العريقة .

اقول : لقد قيل الكثير في مسألة الانتحال في الشعر ، ذكر ذلك المتقدمون ويكفي ان نذكر قول المفضل الضبي الذي ذهب فيه الى ان الشعر الجاهلي قد نال من خلف الاحمر هَجّنه وافسده فلا يصلح ابدا . وقد فصل القول ابن سلام الجمحي في هذه المسألة . ثم كان للمحدثين في عصرنا الحاضر

مشاركة في هذا الموضوع ، وأول من بحث في ذلك المستشرقون مثل نولدكه الالماني وباشَّيه الفرنسي ومرجوليوث الانكليزي كما شارك في ذلك العلماء العرب ولا ننسى في ذلك مشاركة الدكتور طه حسين .

ولقد قيل في وضع الحديث الشريف وما زاد فيه الوضاعون والكذابون وما غيَّر فيه المدلسون والضعفاء حتى كان من ذلك نشأة ما سميّ في علوم الحديث بـ « الجرح والتعديل » ثم كانت طبقات للمحدثين صنفوا حسب توفر الثقة والصدق والامانة فيهم . وكان من كل هذا أن صنفت المصنفات الضخمة في الاحاديث الموضوعة .

ومن غير شك ان الكذب والافتراء والانتحال قد عرض لنصوص التاريخ القديم عامة فظهرت كتب في التاريخ ابتعدت عن العلم فزادت في العبث استجابة لهوى او خدمة لنحلة او بدعة او ضلالة . وكل هذا معروف مشهور .

غير اني لم أجد ممن عرض للمادة اللغوية فاستقرى الصحيح واشار الى المفتعل المصنوع الا شذرات من اخبار تشير الى ان شيئا من الوضع والافتعال قد وقع ، وقد عنيت في هذا الفصل بأمر رواية اللغة وما عرض لها من مواد هي من غير شك

من صنع الوضاعين ، وما أظن ان جمهرة من هذه المواد المصنوعة قد عرفها العرب ولاكتها السنتهم فجرت في كلامهم وسأعرض لهذه النماذج الكثيرة .

جاء في « المزهر »[1] للسيوطي :

قال ابن فارس في « فقه اللغة » :

تؤخذ اللغة سماعا عن الرواة الثقات ذوي الصدق والامانة ويُتَّقَى المظنون .

حدثنا علي بن ابراهيم عن المعداني عن أبيه عن معروف بن حسان عن الليث عن الخليل قال :

« ان النحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب ارادة اللبس والتعنيت » .

قال ابن فارس : فليتحرَّ آخذ أهل الامانة والصدق والثقة والعدالة فقد بلغنا من أمر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا » .

ومن هنا نعلم ان الخليل قد عرض لهذا الموضوع . وان قوله : « ربما ادخلوا » يعني أنهم أدخلوا ، واستعمال « ربما » في اللغة القديمة تفيد التكثير كثيرا كما تفيد التقليل في نصوص اخرى وبذلك قال النحويون .

---

(١) المزهر ١/١٣٧ ـ ١٣٨ .

ولشيوع الكذب في اللغة قالوا : « تؤخذ اللغة من ذوي الصدق والامانة ويتقى المظنون». ثم قالوا : « لا تؤخذ اللغة من الطفل والمجنون » . وتشدد قوم وغالوا فمنعوا ان تؤخذ من العبد » . وهم يجرون مجرى أهل الحديث والاثر في تحري الصدق والثقة والامانة .

واذا عرفنا ان الوضع قد عرض للحديث ، وان الوضاعين والمدلسين من أهل الحديث جمهور كبير ، فليس غريبا ان نجد شيئا من ذلك قد عرض للمادة اللغوية . ثم اذا عرفنا ان الوضاعين قد عبثوا في الحديث الشريف والرسول الكريم يقول :

« من كذب عليَّ منكم متعمدا فلتبوأ مقعده من النار » وأدركنا سوء صنيعهم عرفنا ان قضية الوضع في اللغة شيء ليس ذا خطر كبير .

ولا نذهب بعيدا في الاستدلال على وجود الانتحال والكذب في المادة اللغوية ، وربما يكفي ان نذكر برم رؤبه بن العجاج الراجز المشهور بيونس بن حبيب ، من علماء اللغة المتقدمين ممن اخذ عنهم سيبويه حين كان يكثر السؤال عن اللغة .

قال رؤبة ليونس بعد ان اكثر من مساءلته وضاق به ذرعا : حتى متى تسألني عن هذه الاباطيل

وازوّقها لك ، أما ترى الشيب قد بلغ في رأسك ولحيتك »[1] .

وحكى ابو عبيدة عن ابن داود بن متمم بن نويرة شيئا يقرب من ذلك فقال :

« ... قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي في الجلب والميرة فنزل النحيت فأتيته أنا وابن نوح العطاردي فسألناه عن شعر أبيه فجعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا ، واذا كلام دون كلام متمم واذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متمّم والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علمنا انه يفتعله »[2] .

اقول : ان هذا الخبر لا يشير الى الكذب والافتعال في اللغة ولكنه يشير الى الافتعال والكذب في المادة الادبية ، ولكني ذكرته لاشير الى ان الافتعال والوضع والكذب شيء عام فكما عرض للمادة الادبية، عرض للغة هذه المادة الادبية . ومن غير شك ان ما جرى بين يونس بن حبيب ورؤبة بن انعجاج الراجز مفيد كل الافادة في ان كثيرا من مادة الغريب والنوادر هو مما افتعله اولئك « النحارير » .

ومن المفيد ان اشير الى ان كثيرا مما سأعرض له من المادة اللغوية يفصح عن انه موضوع ذلك انه ورد غفلا دون ان يكون في نص فصيح ثبتت نسبته

(١) نزهة الالباء (ط مكتبة الاندلس ببغداد) ص ٢٢٠ .

(٢) انباه الرواة ١٧٢/٣ .

الى قائله ، ثم ان وجد منه ما هو في شاهد من شعر او رجز نادر فلا يعرف قائلـه ، أو أن يكـون غير معروف الا في رؤبة أو ابيه او غيرهما من الرجّاز .

ومن المفيد ان أعرض لما أثر عن كبار اللغويين النحاة لاشير الى شيء مما ذهبت اليه من مسألـة الوضع والافتعال في اللغة .

جاء في أخبار ابي العباس محمد بن يزيد المبرد صاحب « الكامل »(١) :

« وقال ابو عبدالله المفجّع : كان المبرد لعظم حفظه اللغة واتساعه يُتَّهم ، فتوافقنا على مسألة لا أصل لها نسأله عنها لننظر كيف يجيب ، وكنـا قبل ذلك تمارينا في عروض بيت الشاعر :

أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبقِ بعضنا

حنانيك بعض الشرِّ أهونُ من بعضِ

فقال قوم : هو من البحر الفلاني ، وقـال آخر : هو من البحر الفلاني فقطّعناه وتردّد عـلى أفواهنا تقطيعه ومنه « ق بعضنا » فقلت : أيدك الله تعالى ، ما القبعض ؟ فقال : القطن ، يصدق ذلك قول الشاعر :

كأنَّ سنامَها حُشِيَ القِبَعْضا

---

(١) نزهة الانباه (ط مكتبة الاندلس ببغداد ص ٢٢٠) .

قال : فقلت لاصحـــابي : ترون الجـواب والشاهد ، ان كان صحيحا فهو عجيب ، وان كان اختلق الجوابَ في الحال فهو أعجب .

ومثل هذا ما ورد في أخبار أبي عمر الزاهـد « غلام ثعلب » فقد اشتهر عنه انـه لا يُسأَل الا أجاب ، فقد كان كثير الاملاء ، عالما بالاخبار واللغة والادب ، متهما بالكذب والتزيد .

جاء في « انباه الرواة »(٢) للقفطي :

« ويُروى ان جماعة من أهل بغداد اجتازوا على « قنطرة الصَراة » وتذاكروا كذبه فقال بعضهم : أنا أصحّف له « القنطرة » واسأله عنها فانه يجيب بشيء آخر ، فلما صرنا بين يديه قال : ايها الشيخ ما الهرطنق عند العرب ؟ فذكر شيئا قد انسـيته فتضاحكنا وأتممنا المجلس وانصرفنا ؛ فلما كان بعد شهر ذكرنا الحديث فوضعنا رجـلاً غير ذلك فسأله فقال له : ما الهرطنق ؟ فقال : الست قد سألت عن هذه المسألة منذ كذا وكذا ؟ فقال : هي كذا فما درينا من أي الامرين نعجب . من ذكائه ، ان كان علما فهو اتساع طريف ، وان كان كذبا في

(٢) انباه الرواة ١٧٢/٣

الحال ثم قد حفظه ، فلما سئل عنه ذكر الوقت والمسألة فأجاب بذلك الجواب فهو أطرف .

ومثل هذه الاخبار كثير في مصادرنا العربية ، وهي مفيدة كل الأفادة في البحث اللغوي التاريخي.

أقول : قد تكون هذه الاخبار موضوعة التماسا للسمر او النيل من فلان او فلان ممن اشتهروا بالعلم ، أو قد تكون قد حيكت لبيان فضل فلان أو فلان . غير اني افيد من كل ذلك ان لا بد من شيء من اللغة قد وضع ، وانه بسبب من ذلك كانت لنا مواد ضخمة تخلفت في بطو ن المطولات من كتب اللغة .

واني لاعرض لشيء من ذلك اتخذ منه نماذج ، واود ان أقول باديء ذي بدء :

ان هذه المخلفات اللغوية تتناول في الغالب المعاني الخَلقية الحسيّة مما يدخل في باب « خلق الانسان والحيوان » . ثم انها تشتمل على أبنية خاصة نافرة . أقول : نافرة لانها قليلة الورود في لغتنا القديمة العريقة ، فهي والحالة هذه قد عَفّى عليها الزمان في عربيتنا المعاصرة .

ويبدو لي ان اولئك النحارير الكبار قد اهتدوا الى هذا الوضع والافتعال سعيا وراء الغريب

والنادر وولوعا بتلك الاوابد النافرة وحبا باظهار العلم والاجتهاد فيه . ثم انهم اتخذوا من بعض المواد التي ثبتت صحتها أصولا فزادوا في أصواتها صوتا ظنوا انه يزيد المعنى قوة فقالوا مثلا :

خُنْبُث وخُنابِث ، والرجل الخُنْبُث والخنابِث هو المذموم الخائن . ومن غير شك ان هذه الكلمة لم ترد في نص قديم منسوب أو غير منسوب .

والذي اراه أنها صنعت من مادة (خبث) فزادوا في اصواتها النون والتزموا بناءً غريبا من أبنية الرباعي وذهبوا الى المعنى الذي ارادوه وهو الذي لا يبتعد عن أصل المادة الثلاثية كثيرا . ومن المفيد أن انبه الدارس الى ان بناء « فُعالِل » بضم أوله وكسر ما قبل الآخر من الابنية التي هُجرت في العربية الفصيحة منذ أزمان طويلة بله عربيتنا المعاصرة .

هذا مثل سقته لاخلص منه الى تحقيق واف اعتمدت فيه على كتاب « الجمهرة » لابن دريد واقتصرت منه على ما جاء في « ابواب الرباعي الصحيح من المجلد الثالث » . وسوف اجتزىء من

هذا القدر الذي احتفظت لمبحث مفصل غير هذا الموجز ، بسرد طائفة من الالفاظ التي وقفت عليها في الكتاب مقتصرا على معنى « الصلب الشديد » فاذكر :

العَتَبَل والنَبْتَل والكُنْبُث والكُتابِث والجِلْبِز والجُلابِز والجَلْعَد والجُلاعِد والجَلْفز والجُلافِز والكَمْتَل والكُماتِل .

ومن هذا قدر كبير يعد بالعشرات منصرفا الى معنى الصلابة والشدة .

أقول : ان هذه الطائفة من الالفاظ وهي قليل من كثير في معنى « الصلب الشديد » أو « الشديد الصلب » قد وردت على هذا اللون النافر من البناء وانها لم ترد في نص أيا كان موضوعا ام غير موضوع . ثم أنها لم تلصق بموصوف معروف ، فلم اتبين اكانت من صفات العاقلين ولوازمهم أم من صفات غير العاقل حيوانا كان أم جمادا .

وفي المعجم القديم طوائف اخرى من ابنية غريبة يجتمع في كل منها عدد ضخم من الالفاظ التي تعني الصفات الخَلْقية كالطول والقصر والضخافة والغِلَظ والثقل والاسترخاء وغير ذلك.

على ان الباحث لايعدم ان يجد الفاظا غريبة أخرى نادرة لا تعرف في نص من النصوص وهي تعني صفات غير حسية نحو المداهنة والخيانة . غير ان هذه الالفاظ قليلة اذا ما قيست بالالفاظ الغريبة ذات الدلالة الحسية .

لقد حفل المعجم القديم بهذه المواد التي فقدت الحياة او قل انها لم تر الحياة في تاريخها الطويل ذلك انها لم ترد في شيء من كلامهم .

ان الدارس المدقق ليحصى من هذا اللغو الشيء الكثير الذي اثقل العربية فتحجر فيها ولفظته الحياة منذ كان ووضع .

العربية والمصطلح العلمي

العربية احدى اللغات الحية . وهذا يقتضينا ان نفهم فنسلم بأنها لغة متطورة تخضع لما تخضع له اللغات الحية عامة . وهي احدى لغات سامية اندثرت معالمها وامحت اصولها فلم تبق الا هـذه اللغة القديمة . ولابد من الاستطراد قليلا فأقول انها الوحيدة بين المجموعة السامية التي ثبتت على مر العصور في حين لم تثبت تلك اللغات . سيقول قائل ان العبرانية لغة قائمة وانا اقول ان هـذه العبرانية الجديدة ليست الا مادة جديدة اعيـد بناؤها بصورة قسرية جبرية لتكون لغة مجاميـع بشرية هي ليست لغتهم . ومن اجل هذا فان علم اللغة الحديث يرفض ان تكون هذه الاداة اللغـة الطبيعية لهذه الاشتات المتنافرة .

ولابد لي ان ادع هذا الاستطراد الموجز فأعود الى العربية لاقرر انها اللغة الحية وانها ثبتت ازاء العصور . وأنها كانت خير وسيلة للاعـراب عـن حضارات مزدهرة وآية ذلك ان العلم القديم بفكره وفلسفته وسائر الوانه لم يكن له من وسيلة غـير

هذه العربية السمحة ولا أراني منسافا انسياقا عاطفيا حين اقرر انها كانت سيدة لغات العالم القديم خلال قرون متلاحقة ابتداء من القرن السابع الميلادي ، ومن اجل هذا فقد كتب المفكرون من غير العرب ونسوا لغاتهم وقرروا ان لا سبيل الى الاعراب عن الفكر الفلسفي مثلا الا بهذه العربية .

ومن هنا كنا قد ورثنا هذه اللغة القديمة وكان لها من اسباب الحياة ما اعان على استمرارها بهيئة معلومة ذلك اننا معاشر العرب قد ورثنا تراثا ضخما هو مادة هذه اللغة . ولولا هذا التراث وعلى رأسه كتاب الله ـ جل وعلا ـ لآل أمر هذه اللغة الى لغات عدة كما هي الحال مثلا في اللغات الرومانية التي تحولت الى الرومانية والايطالية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية .

لم يكن شيء من هذا في العربية ، وذلك ان العربية ما زالت لغة أمة باسرها في بقاع فسيحة من العالم هي البلاد العربية . ولو عمل اهل العربية على رعاية هذه اللغة لكان لهم ان يوسعوا من هذه الرقعة فتعم لغتهم في بقاع افريقية وغير افريقية ممن فطروا على الاسلام دينا وآمنوا به فكرا وسلوكا . ومع كل هذا اننا نواجه مشكلات في هذه العربية بسبب اننا لا نملكها كما كان اسلافنا يملكون منها . واننا نتعلمها تعلما ونواجه في تعلّمها الصعاب ، واننا قد نعزف

عنها شاعرين ام غير شاعرين انسياقا مع مفهوم خاطىء ضال هو ان هذه اللغة قاصرة عن مواجهة الفكر الحديث . ثم اننا مقصرون في تعلمها وهذا التقصير يعني ان وسائل تعلمها متخلفة عن العلم الصحيح في وسائل التربية الحديثة . ثم ان مادتها لابد ان تكون شيئا اخر ليس ما درج عليه المعنيون بتدريسها .

ومن هنا كان عليّ ان اقول : اننا لابد ان نسلم ان العربية لغة متطورة وان عربية عصرنا الحاضر غير العربية القديمة . ولعلي استطيع ان أقول ان عربية هذه الايام غيرها منذ عشرين او ثلاثين سنة . ثم اننا لا نملك هذه العربية بسبب ان سلوكنا اللغوي بعيد عنها فاننا نباشر طرائق في الكلام والخطاب مستمدة من مواد تتصل بما يسمى اللهجات الحديثة وهذه اللهجات الحديثة مختلفة في مستواها بين جهة وأخرى ثم هي مختلفة في مستوياتها ومادتها بين الطبقات المختلفة في البيئة الواحدة .

كل هذا فرض علينا ان نتدبر امر اللغة الفصيحة ايمانا منا انها الوسيلة الوحيدة التي تصلح لحياة جديدة ذات حضارة جديدة هي الحضارة العالمية المعاصرة بتعقيدها وتركيبها . ثم علينا ان نقرر ان هذه العربية الفصيحة قادرة على ان تكون احدى اللغات العالمية للاعراب عن الحضارة الحديثة.

قلت اننا لا نملك هذه اللغة فلا نستطيع ان نعبر بها تعبيرا يبلغ القصد كما لا نستطيع ان نؤدي بها كتابة ما يدور في افكارنا . ومن أجل هذا فلابد من التفكير في المشكلة اللغوية .

أقول ان العربية ليست بدعا بين اللغات وانها ليست غريبة معقدة كما يدعي جمهرة من المثقفين العرب . وانها تملك من وسائل الحياة ما يقرر انها لغة عالية المستوى كما يؤيد ذلك علم اللغة الحديث .

اخلص من كل هذا الى اننا نتعلمها خطأ ومادة ومنهجا . ومن هنا تكون المشكلات على ضربين الاول يتصل بالمادة والثاني يتصل بالمنهج .

الضرب الاول

لم يرد المختصون من علماء العربية والمعنيين بتعليمها من الاساتذة والمدرسين والمعلمين ان يقرروا ان العربية لغة حديثة وانها بسبب من ذلك ذات مادة حديثة ينبغي ان تعلم . وهذه المادة الحديثة تختلف عن المادة القديمة اختلافا بينا . وينبني على هذا ان لابد لنا من ادب حديث وفكر حديث ونحو حديث واسلوب حديث ومعجم حديث . هذا لا يعني اننا نقتصر على هذه الالوان الحديثة وذلك ان النهج التاريخي يقتضينا ان نلم بالاصول فنسلم ان المادة اللغوية تخضع للتطور التاريخي . وان النظر الى

اللغات الحديثة المتطورة يهدينا الى ان مادة تلك اللغات التي تقدم للدارسين هي شيء حديث متصل من ناحية المسيرة التاريخية بالمواد القديمة .

ان هذا يفرض علينا ان نقرر ان النحو العربي مثلا لا بد ان يكون نحوا جديدا فهل نملك شيئا من ذلك الجواب : لا . اننا لا نملك من ذلك شيئا بسبب من ان العاملين في عملية التعليم التربوية لم يعانوا التفكير في هذه المشكلة الخطيرة .

اننا ورثنا النحو القديم وكان قد سلخ من عمره اثنى عشر قرنا . وكان السلف الاوائل قد وضعوا البداية النحوية ليكون مادة تدفع غائلة اللحن الذي تفشى في لغة المعربين من العرب بسبب مخالطتهم للاعاجم المتعربين الذين انضموا في المجتمع الاسلامي . ومن غير شك ان نحوا وضع ليفي بهذا الغرض لابد ان يكون مادة تعلمه موضوعية كما نقول في عصرنا . غير انه ما لبث ان كان احد فروع المعرفة ابتداء من اوائل القرن الثالث الهجري . وهذا يعني انه صار مادة للدرس والاجتهاد وصار له اصحابه ممن عرفوا بالنحاة . ثم كان اولئك ان صاروا طبقات على مر العصور ثم كان ان تحول من مواد يسيرة يراد بها غرضا تعليميا وهو عصمة اللسان من غائلة اللحن الى مواد جديدة لا يراد لها ان تكون ضوابط يسيرة لغرض تعليمي معروف . ولقد ادى هذا الى ان

اصبح النحو مادة معقدة عسيرة المنال تبعد عن تناول المشكلة اللغوية ذلك انها اقتبست من المنطق الارسطي واساليبه مما احال المادة اللغوية الى شيء اخر ، لقد تحول النحو الى النحو الجدلي الذي يستند على العلة والمعلول . ومن هنا كان النحو علم الاعراب والى هذا اشار الزمخشري في مقدمة كتابه «المفصل» الى ان علم النحو هو الاعراب وادى هذا الى ان صار العربي يبحث في حركة اخر الكلمة : ولم يكتف النحاة بهذا بل بحثوا في علة الاعراب ، ومن هنا قرروا ان الاسم معرب لانه كيت وكيت وان كل ما اشبهه كان معربا . ومن اجل هذا شابه الفعل المستقبل الاسم فكان مضارعا له .

رب سائل يسأل وما ضير هذه النظرة على الحقيقة اللغوية والجواب عن هذا ان شيئا كثيرا يتصل بمادة الفعل قد اهمل . الا ترى انهم جعلوا حد الفعل : الحدث المقترن بزمن ! ولكننا لا نعرف وجه الزمن في باب الفعل في اي من كتب النحو القديم . ثم لم يكتفوا بالعلة الاولى حتى توصلوا الى ما اسموه بالعلل الثواني والثوالث . ثم كأنهم لمحوا ان الكلمة العربية معربة اصالة ولذلك اهتموا بالاعراب فنظروا اليه على انه اثر يجلبه العامل ولابد من الوقوف عند هذه النظرة لنتبين اثر المنطق فيها.

اقول : كأن الاعراب النتيجة التي ادى اليها العامل وهو السبب ، فاذا لم يروا هذا الاثر قدروه فكان الاعراب التقديري يرى وهو شيء متخيل متوهم . ثم ان كانت الكلمة مما لا يقبل الحركة في الاخر سميت مبنية وهي لابد ان تخضع لنظام جمهرة الكلمات في العربية وهي الكلمات المعربة فأعربت بنظام خاص سمي الاعراب المحلي وبذلك لا تفلت كلمة من الكلم في العربية من هذا الحكم .

اقول : ان المتتبع لمواد النحو في كتبه القديمة واقصد بالكتب القديمة تلك التي درستها اجيالنا السابقة في باب « علوم الجادة » وهي التي تدخل في آلات المتعلمين حتى جيلنا السابق ، ان المتتبع لهذه الكتب يجد مواد وطرائق بعيدة كل البعد عن النهج السليم في تحرير النحو في عصرنا ولا سيما في اللغات المتقدمة الغربية . ولا ارى حاجة لضرب الامثلة على ذلك .

ان هذه الكتب القديمة وجلها شروح للالفية وتعليق على شواهدها تختلف عن نظرات النحويين المتقدمين من طبقات النحاة الاوائل . فأين هذه من آراء الخليل بن احمد وسيبويه في « الكتاب » .

المختصون من عرب وغير عرب مسلمين ، ولقد وجد غير العرب ومن غير المسلمين انها أمثل لغة للتعبير عن الفكر الفلسفي وان فيها مكتبة تمد الباحث المتخصص بطائفة عن الالفاظ الاصطلاحية . ومن اجل ذلك نقل اليها التراجمة النصارى فلسفة الاغريق وعلومهم ، ذلك انهم وجدوا ان سريانيتهم لا تؤدي هذه الاغراض الجديدة .

ولكن المجتمع العربي بعد ان دهته الدواهي وتفرق ايما تفرق واستولى عليه الاعاجم من اهم شيء انقطع عن حضارته فأصاب لغته الهرم واصبحت شيئا بعيدا لا يتهيأ له ان يناله بيسر فعم الجهل وانقطع معين الحضارة الزاخر وسادت ما سمى في التاريخ حقبة « الفترة المظلمة » .

اقول هي « المظلمة » بالقياس الى الجماهير الواسعة بحيث صارت العربية اهتمام الطبقة التي تسعى اليها متلقية متعلمة .

ثم جاء العصر الحديث وجاءت النهضة الغربية بحضارتها ومدنيتها ووجد العرب انفسهم متخلفين عنها ذلك ان مصادر العلم الحديث مصادر اجنبية . وأنهم لم يحذقوا لغتهم بل فقدوها ابان قرون عدة خلال الحكم العثماني فيكف يتاح لهم ان ينهضوا وان يواكبوا الحضارة الجديدة .

لابد لهم من اداة لغوية تتعرب بها العلـــوم الحديثة ومن هنا نشأت مشكلة المصطلح الفنـــي Le Term Technique لقد نهض المختصون من الافراد والهيئات بهذا الواجب الثقيل ونظروا في لغتهم نظر العالم الحاذق فوجدوا ان في العربية من الوسائل ما يعين على حل هذه المشكلة .

لقد اتبع الاقدمون طريقين لتوفير المصطلـح الاول : انهم فتشوا في العربية عن اللفظ الســهل الذي لا ينصرف الى معان كثيرة فتواضعوا عليـــه مقابلا للكلمة الاعجمية الاصطلاحية .وبذلك انتقلت الكلمة العربية الى شيء من « مصطلح » .

والثاني : انهم لجأوا الى التعريب وقصدوا به ان تؤخذ الكلمة الاعجمية باصواتها او بتغيير شيء من ذلك ووضعها في العربية بحيث لا تنأى كثيرا عن الابنية المعروفة في اللغة العربية .

وبهذه الطريقة الثانية نشأت الفلسفة والموسيقى والهيولى والجغرافيـا ثم ســار على هذا الســنن المتأخـــرون فقالـــوا الفلســـفة والديمقراطية والارستقراطية ومثل هذا كثير .

وقد جرى نفر من المحدثين على هذه الطريقة فحلا لهم ان يقولوا « التلفزة » للتلفزيون .

ان مواد العلم الحديث كثيرة ومن اجل ذلك فلابد ان تتهيأ مادة كبيرة في المصطلحات لتسد مسدها . وقد بذل المعنيون في هذا السبيل جهودا كبيرة في هذا الباب .

ولولا ان هذه الجهود مفتقرة الى التوحيد فيما بينها لامكن ان تحل هذه المشكلة . ومن هنا فلابد من توحيد هذه الجهود المختلفة .

وما اراني الا مكررا الكلام على غنى العربية ووسائلها الخاصة في توفير المصطلح لقد كثر القول في هذا وكثرت الدراسات فاشير مثلا الى قدرة العربية الاشتقاقية وانها تتسع في الاشتقاق الى حد الاشتقاق من اسماء الاعيان كالماء والهواء والحجر والحديد والخشب وما الى ذلك .

وان لها من ابنيتها ما يعين على توفير مسائل كثيرة كالمصدر الصناعي الذي صنعت به النسبية والمادية والكهربائية والحيوية والديمقراطية والوجودية ومثل هذا كثير .

وان لها من أبنية اسماء الالة وسائر المشتقات ما هو كفيل في توفير مادة اصطلاحية كبيرة .

ولقد دل الاستقراء على ان في العربية ابنية لم يلتفت اليها الصرفيون ولم يقيدوها في مصنفاتهم وهي تصلح ان تؤدي اغراضا علمية .

من ذلك مادة « فعال » بكسر الفاء وهي من ابنية اسماء الالة في اللغة القديمة وهي اسهل واولى من المشتقات القياسية .

وقد ورد مما جاء على هذه الصيغة مئات من الالفاظ التي تستعمل ادوات والات ومن ذلك :

العيار والصمام والعفاص والخياط والرباط والوكاء والنقاب والقناع واللجام ومثل هذا كثير لا يأتي عليه الا الاستقراء الوافي في امهات كتب العربية.

ومثل هذه الابنية التي لم يفطن اليها المحدثون ما جاء على « فعلة » بضم الفاء مرادا به اسم المفعول القديم قبل ان تكون له قاعدة « مفعول » من الثلاثي ومنه اللمزة اي الملموز واللقمة أي الملقوموالضحكة أي المضحوك منه وكان اهل الاقتصاد مصيبين كل الاصابة حين قالوا « العملة » بالمعنى المعروف .

ونستطيع ان نوصي توصيات عامة بشأن المصطلح الفني المقترح وهي :

١) ان يكون المصطلح من الالفاظ التي لا تنصرف معانيها الى مدلولات كثيرة .

٢) ان يكون المصطلح من الالفاظ السهلة اليسيرة في بنائها من حيث الاصوات .

٣) ان تكون بسيطة لا مركبة قدر الامكان وبذلك يستغنى ما امكن عن الالفاظ المنحوتة والالفاظ المضافة .

٤) ان يكون المصطلح من الالفاظ المعروفة فلا يلجأ الى الغريب الا عند الضرورة او في حالة ان اللفظ الغريب كان مصطلحا قديما معروفا للفني ذاته .

٥) ان يكون المصطلح قائما على المادة المرادة فلا يشترك فيه موضوع اخر .

٦) يتجنب المعرب عند اختيار المصطلح ويفضل عليه الكلم العربي .

اخلص الى ان مشكلة المصطلح مشكلة خطيرة ينبغي ان ننظر اليها نظرا جادا وذلك لاننا في حقبة حرجة نقف فيها من الحضارة الحديثة موقفا خاصا يفرض علينا ان نكون واعين اشد الوعي .

التعريب مشكلة ؟

يحسن بي ان أعود قليلا الى مادة « عرَّب » لادرك منها ما يعين على تفهم المشكلة .

جاء في كتب اللغة : قال الازهري الاعراب والتعريب معناهما واحد وهو الابانة . يقال : اعرب عنه لسانه وعرَّب أي ابان وافصح .

ويقال : أعرِبْ عما في ضميرك اي ابِنْ . ومن هذا يقال للرجل الذي افصَحَ بالكلام : اعرَبَ .

وقال ابو زيد الانصاري : يقال : أعرَبَ الاعجمي اعراباً ، وتَعَرَّبَ تَعَرُّباً ، واستَعْرَبَ استعراباً .

وأعرَبَ به : بيَّنه

وعَرَّبه كأعرَبَه واعرَبَ بحجّته اي افصح بها ولم يتَّقِ احداً ، قال الكميت :

وجدنا لكم في آل خمٍ آيةً

تأوَّلها منّا تقيٌّ مُعَرِّبُ

ومَعِرب في البيت مُفصح بالحق لا يَتَوقاهم

وقال الجوهري : مُعرِب مفصح بالتفصيل في الكلام على الشاهد المذكور وهو قول الكميت .

وعَرَّب منطقه : هذَّبه من اللحن ومثله اعرَبَ كلامه اذا لم يلحَن في الاعراب .

ويقال : عَرَّبت له الكلام تعريباً ، واعربت له اعراباً اذا بيَّنته له حتى لا يكون فيه حَضْرَمة .

وعَرَب الرجل يَعرُبُ عُرْباً وعُروباً عن ثعلب ، وعروبة وعَرابة وعُروبيّة ، كفَصُحَ . وعَرِبَ اذا فَصُحَ بعد لُكنة في لسانه . ورجل عريب مُعرب .

وعرَّبَه : علَّمه العربية .

ان الدارس لهذه اللفظة التاريخية ليجد فيها سعة عجيبة فهي تنصرف الى معان ودلالات تبعد احياناً عن هذا الذي سبقت الاشارة اليه . تأتي هذه اللفظة وهي بعيدة عن صفات ولوازم العاقل فتكون للدابة مثلاً .

ومن ذلك المُعرِبُ من الخيل . الذي ليس فيه عرق هجين . والاعراب : معرفتك بالفرس العربي من الهجين ، ومنه قيل الخيل العِرابه اي عربية منسوبة الى العرب .

والتعريب : ان يتَّخذ فَرَساً عربياً ، ومنه قيل : مُعرِب اي خلصت عربيته .

وعَرَّبَ الفَرَسَ : بزَّغه ، وذلك ان تَنْشِفَ أسفَلَ حافره ، ومعناه انه قد بان بذلك ما كان خفياً من أمره لظهوره الى مرآة العين بعد ما كان مستوراً وبذلك تعرف حاله أصلب هو أم رِخْو ، وصحيح هو أم سقيم .

وقال الازهري : والتعريب تعريب الفَرَس ، وهو أن يُكوَى على أشاعِر حافره ، في مواضع ، ثم يُبْزَغ بمِبْزَغٍ بَزْغاً رفيقاً لا يؤثر في عصبه ليشتدَّ أشعره .

ومن الطريف ان أشير الى ان « الاعراب » و «التعريب» الفحش وما قَبحُ من الكلام . قال ابن عباس في قوله تعالى : « فلا رفث ولا فسوق » هو العِرابة في كلام العرب . والعِرابة كأنه اسم موضوع من التعريب وهو ما قَبحُ من الكلام .

وقالوا : وتعريب الاسم الاعجمي أن تتفوَّهَ به العرب على منهاجها ، تقول : عَرَّبَتْه العرب وأعربته أيضاً .

لقد ولّد اللغويون الاوائل « مصطلح » « التعريب » وارسوه على أصول راسخة ثابتة . ان التعريب عندهم توليد « المُعَرَّبه » وهو الكلم

الاعجمي السائر في نمط من الانماط العربية وهي « الابنية » عندهم او الصيغ . وهذا يعني ان الكلمة الاعجمية ان لم توافق بنـــاءً من ابنيتهم عولجت معالجة خاصة بالحذف والتغيير والزيادة في اصواتها لتجيء موافقة للاوزان العربية وللاصوات العربية في الوقت نفسه .

وقد اتفقوا على هذا بعد ان شاعت المُعرَّبات وكثر التعريب لان الحاجة الى ذلك قائمة في كـل عصر . ولشيوع هذه المواد المعربة وكثرتها ودخولها في مصنفات الكتاب والادباء والعلماء والحكمـــاء والفلاسفة اخترع فريق من اللغويين بتصنيف الكتب والمعجمات التي انصرفت الى موضوع « المعرب » .

المعرب والدخيل :

ادركنا كيف اطلقوا المُعرَّب على طائفة مــن الكلم الاعجمي الذي نقلوه الى العربية بعد ان اجروا عليه ما جعله موافقا لأبنيتهم ، فكأن المُعرَّب مــن الكلمات ما اشبه الكلم العربي . وما زال شيء من هذا المعنى مستعملا في بعض الالسن الدارجة فقد يقال في المواطن القروية في العراق مثلا في الكلام على طائفة من الحيوان انها مُعرَّبة اي انها من اصــول غير عربية ثم دجنت فاشبهت نظائرها من الدواب المعروفة في المواطن العربية .

ومثل هذا قالوا في البهرج من العملة غير الخالصة النقية انها « مُعرَّبة » فالدرهم مَعرَّب أي انه مدخول فيه .

ومن هنا لابد ان اعقد بين «المعرَّب» والمُعَرَّب ، أي ان في الاول عنصرا غريبا ومن ذلك ما شاع في شعر الغزل لدى شعراء العامة في العراق الجنوبي مثلا فقالوا : « هو مُعرَّب عن الريم » أي شُبه للرئم وهو الغزال . لاجتماع صفات خلقية في كليهما كالعين والجيد والتناسق .

ثم اننا نرى مصطلح « الدخيل » في مصادرنا اللغوية القديمة . لقد كان كتاب الشهاب الخفاجي موسوما ب « شفاء الغليل فيما في لغة العرب من الدخيل » .

ومن النظر في كتاب الخفاجي هذا وفي سائر ما اطلق عليه « الدخيل » يبدو لنا ان « الدخيل » ليس مصطلحا فنيا كالمُعَرَّب الذي الحق بلغة العرب فكان شيئا منها ولكنه في الاعم الاغلب ما استعمله الكتاب وذوو الحاجة من اصحاب الاختصاصات المختلفة من الكلم الاعجمي . ومعنى هذا ان طائفة كبيرة مما اطلق عليه « الدخيل » مادة غريبة ليست من لغة العرب وانها مرهونة بزمانها ومكانها . ولانعدم ان نجد بين اللغويين الاقدمين من جعل الدخيل والمعرَّب شيئا واحدا .

لقد عرضت الحاجة الى نقل الكلم الاعجمي وصيرورته « معربا » في العصور الاولى من تاريخ العربية . انك واجد من هذا الدخيل مادة واسعة في ادبنا الجاهلي القديم ، وانك لتجد شيئا منه بوجه خاص في شعر امية بن ابي الصلت مثلا .

ومن المعلوم ان التحول الحضاري يدعو الى هذا . ومن غير شك ان التحول الحضاري واقع في كل عصر . وهذا يعني ان الجاهليين قبل الاسلام قد حزبهم هذا اللون من التحول الحضاري ، فليس مجتمع الجاهلية القديم مجتمعا انصرف بمادته ولوازمه الى البداوة ، وذلك لان الاصول الحضارية واضحة كل الوضوح في ادبهم . انك لتجد في نصوص الادب الجاهلي مواد لغوية استعيرت من لغات عدة تنصرف الى ادوات وآلات واعراض واحوال . وهي تنتظم ما ندعوه بالحاجة المادية والحاجة المعنوية .

ثم جاء الاسلام بشريعة جديدة وفكر جديد وحضارة جديدة ونمط من حياة اجتماعية غير تلك في عهود ما قبل الاسلام . ومن ثم لابد ان يكون لكل ذلك رصيد لغوي جديد فيه من المفكر الجديد نصيب وافر . ولابد والحالة هذه ان يظهر فيض جديد من المعرب مما تقتضيه الحياة الجديدة .

ثم اتصل العرب المسلمون بغيرهم ابان الفتح فاتسعت الرقعة الاسلامية ودخل في المجتمع الجديد أمم شتى فكان لابد ان تثرى العربية بمادة جديدة تقتضيها ظروف هذه المجتمعات الواسعة في شتى اقطار الدولة الاسلامية . ثم كان عصر العلوم والمعارف التي اضيفت الى التراث الاسلامي فكان ان حفلت العربية بمادة ضخمة فيها ما يتصل باسباب الحياة المادية الجديدة وفيها ما يتصل بالحضارة الفكرية .

قلت ان المواد الاصطلاحية التي دخلت العربية تنتمي الى لغات مختلفة منها الفارسية والرومية [اليونانية والرومانية) والهندية والمغولية بالوانها المختلفة لعل اخرها التركية العثمانية .

وأريد ان أفرد مكانا خاصا للغات السامية التي نجدها في العربية . أقول ان طائفة كبيرة من المعرب الذي شاع في العربية من أصول سامية عبرانية وآرامية وبابلية ولانعدم ان نجد شيئا من الحبشية القديمة .

ومن المفيد أن أشير الى ان الذين كتبوا وصنفوا في « المعرب » لم يهتدوا الى الاصول التي جاءت منها تلك المواد المعرّبة . انهم خلطوا بين ما هو آرامي

سرياني وبين ما هو عبراني ، فالجواليقي في كتاب المعرب يقول مثلا في كلمة « صلاة » انها عبرانية وقيل سريانية ومثل هذا التردد كثير . وهو يدل على انه لم يعرف معرفة العالم الواثق للاصول التي اخذت منها العربية .

ومن الغريب ان اللغويين الذين صنفوا في المعرب وتكلموا عليه لم يعرفوا غير العربية وان كثيرا منهم كان يجهل اللغات التي كانت معاصرة للعربية من سامية وغير سامية ولذلك جاءت مدوناتهم مفتقرة الى الضبط والصحة .

ثم جاء العصر الحديث فشعر العرب ان معين الحضارة الحديثة يتدفق من الغرب ومن اصقاع بعيدة عنهم . وان لا قبل لهم باللحاق بأهل العصر الجديد وذلك لان العلم الحديث والمعرفة الحديثة شيء لم يتهيأ لهم بسبب انهم لا يعرفون الوسائل الى ذلك ، وان لغتهم قاصرة عن ان تكون وسيلة لنقل المعارف الجديدة بسبب انهم لا يعرفونها معرفة حسنة فالامية فاشية والجهل مستحكم والشعوب مغلوبة على امرها يصرف شؤونها حاكم دخيل ولو كان هذا الحاكم عثمانيا مسلما .

ومن هنا نشأ التفكير في « التعريب » والتعريب في عصرنا الحديث شيء غير الذي عرضنا له . لقد فكروا في اغناء العربية بالمصطلح الفني للوسائل والادوات والمعاني الجديدة . ثم فكروا في جعل العربية لغة العلم فكان لطائفة منهم ما أرادت .

ولقد انصرفت جهود الاوائل العاملين في « التعريب » في مطلع هذا القرن الى اتباع اسلوبين :

الاول : تهيئة المصطلح العلمي بأخذه بجملته من اللغة الاجنبية واجراء تغيير طفيف عليه ينصرف الى الاصوات ومعالجتها علاجا يهيىء من المادة الاجنبية شيئا على غرار الابنية العربية والاصوات العربية . وهذا هو الذي جرى عليه المتقدمون فكانت لهم مصطلحات الفلسفة والموسيقى والجغرافيا والكيمياء والسيمياء والفيزيقا والارثمطيقا والغرامطيقا . ومثله كثير كثير .

والثاني : ان يتجّه الى العربية فيختار من موادها مادة على اية هيئة كانت لتؤدي المعنى الجديد او قل المصطلح العلمي . واستطيع ان اسمي هذا الاسلوب : اسلوب الترجمة .

ولقد افاد المتقدمون من هذا الاسلوب الثاني فصنعوا المعجم الزاخر بالفاظ العلم . واستطيع ان أدخل في هذا الفاظ الحديث او ما سمي بـ«مصطلح الحديث» والفاظ القرآن مما اشتمل على مجـازه وغريبه ومشكله ومفرده ونادره ولغاته ، وكل ذلك يدخل في اللغة الاصطلاحية .

ومثل هذا يقال في سائر الالفاظ الخاصـة الاسلامية وغيرها من سائر العلوم التي عرفهـا المسلمون في حضارتهم الاسلامية طوال العصـور المتعاقبة . غير ان المعنيين بالتعريب في عصرنا قـد ضيقوا مفهومه القديم فقصروه على نقل العلم الحديث بالعربية . يدخل في هذا المصطلح وغيره .

هذا هو « التعريب » الذي اخذ به العرب في عصرنا هذا في يومنا هذا .

لا اريد ان اعرض للنواحي التاريخية التـي كانت الاساس في نقل العلوم والمعرفة ولا اريـد ان اشير الى المراكز التي سبقت الاسلام مثل جنديسابور في الشرق والاسكندرية في الغرب وما كان لهذيـن المركزين من اثر في نشر المعرفة .

ولا اريد أن أعرض لأثر الجماعات السريانيـة النصرانية والجماعات اليهودية في بلاد العرب وما كان لهم من مكان في المعارف القديمة .

ولكني سأعرض للتعريب ابان الفتح الاسلامي وفي خلال القرن الاول للهجرة . ولقد اندفع المسلمون بسبب العوامل المساعدة على ذلك وهي :

١ – وجود المراكز العلمية التي كانت حافلة باصحا بالثقافات القديمة ثم اولئك الذين جاءوا فاتصلوا بالمجتمع الاسلامي الجديد .

٢ – ان معظم المعنيين بالثقافات القديمة كانوا من الساميين أي الناطقين بالسريانية ممن حذقوا اللغتين العربية والسريانية . ووجود هؤلاء يشير الى ان الثقافة القديمة مما يحمله هؤلاء ما زالت معرفة متدارسة في ظلال الحكم العربي الجديد .

٣ – دخول غير الساميين في المجتمع الاسلامي الجديد ولا سيما من الفرس ، وكان هؤلاء من غير شك ينقلون شيئا من معارفهم الى العربية التي تعلموها بل حذقوها .

٤ – سعى اولو الامر الى ان يعرف أهل المجتمع الجديد الاسلامي من عرب وغيرهم شيئا من المعارف القديمة مما هم في حاجة اليها .

غير ان تعريب العلوم في هذه الحقبة المتقدمة لم يكن عملا عظيما قام على خطة مدروسة معدّة اعدادا خاصا وانما كان شيئا تمليه الحاجة تارة وحب المعرفة تارة اخرى .

الا ان حركة التعريب قد شهدت تطورا كبيرا وامتدادا في القرن الثاني الهجري . ولقد شغلت الفلسفة المفكرين وأهل الرأي فكانت كتب الفلسفة اليونانية من اوائل ما اهتم به النقلة التراجمة يتلوها كتب العلوم الدنيوية كالرياضة والفلك وغيرها .

والذي نلاحظه ان المعربين في هذه القرون المتقدمة لم يشعروا انهم يواجهون مشكلات صعبة فقد وجدوا في لغتهم العربية وسيلة نافعة للاعراب عن المعارف الجديدة التي جدت في العصور الاسلامية .

وارى ان يفيد علماء عصرنا من تجارب المتقدمين في تهيئة المصطلح العلمي وان يكون لهم من سعة النظر لتقبل المصطلح الاعجمي ان لم يخالف كثيرا ابنية العربية وأصواتها .

حال العربية ومصيرها

لقد قيض للعربية أن تعود جديدة غضة بعد انقضاء الحكم العثماني وظهور ما يسمى بالكيانات السياسية الجديدة . ولم تكن عودتها حدثا غريبا اضطر من أجله العرب ان يقوموا بجهود ضخمة كبيرة ، بل كان امرا طبيعيا ان يعود العرب الى لغتهم العريقة التي ما زالت طائفة المتعلمين منهم تعرف شيئا منها وما يتصل بتراثها . وما زال المسلمون منهم خاصة يقرءوون كتاب الله ويتلون سوره في صلواتهم ودعائهم . ومن هنا كان رصيد العربية مادة قائمة معروفة .

ثم بدات المحنة حين فرضت الحياة الجديدة نفسها وحين وجد العرب انفسهم مضطرين أن يأخذوا بأسباب الحضارة المعاصرة بعلومها وفنونها وما جد فيها من اسباب الحياة .

ولقد انساق العرب في هذا الخضم الجديد وهو الخضم الذي قذف به الغرب واستمال اليه العالمين كلهم بل قل فرضه عليهم فقُذفوا فيه .

ومن مظاهر هذه المحنة الجديدة احتواء اللغة لهذا الجديد الوافد واختبار قوتها وقدرتها على تحمل هذا الجديد ، وهل كان لها من الوسائل والمواد ما يعين على توفير مواد هذه اللغة الجديدة .

اقول : ان تاريخ العربية قد زودنا بشيء من هذا فقد كان لهذه اللغة ان مرت بشيء من هذا منذ صدر الاسلام وسأعرض لذلك . غير اني ارى ان الظاهرة القرآنية وحدها تعد المثال البليغ الناطق بقدرة اللغة واستيعابها للفكر بل قل لدقائق من الفكر العامر بالاسرار البليغة والمعاني النيرة . وليس من شك ان العربية الجاهلية على فخامتها ونصاعتها واشتمالها على النافع والجميل من الوان القول ، ليست شيئا بالاضافة الى البيان المشرق المفضي لطائفة من المعاني البليغة مما ندركه في كتاب الله .

ان عصر الاسلام الاول شهد حضارة جديدة هي حضارة الاسلام وما جاءت به الشريعة من احكام ومبادىء تتصل بالعقيدة والعبادة وسائر الرسوم الدينية واخرى تتصل بالحياة والسلوك والمعاملة وما يتصل بذلك من قوانين واحكام .

وانت ترى ان العربية في هذا العصر قد اربت على الحاجة فكانت لغة العلم ولغة الفكر ولغة الفلسفة . وفي هذا العصر المتقدم كانت الاسس الاولى

لعلوم الاسلام وعلوم العربية . ومن ثم كانت الانتقالة الاولى لهذه اللغة من لغة الادب والشعر الى لغة العلم والمصطلح العلمي . فهل لنا أبلغ من هذه التجربة الصادقة ؟ وهل تستطيع لغة بدائية ان تفي بهذا الرافد الحضاري الزخّار ؟

ثم كانت تجربة القرون التي تلت القرن الاول الهجري ، تلك التجربة التي جعلت من العربية لغة الحضارات المتقدمة في كثير من المراكز الحضارية في العالم الاسلامي الواسع وفي غيره من الاصقاع التي تأثرت بما شارك به المسلمون عامة عربا وغير عرب .

واذا عرفنا ان العربية فرضت نفسها على غير المسلمين ممن كتبوا في الحكمة والفلسفة وسائر العلوم الدنيوية ادركنا قوة هذه اللغة التي اتيح لها ان تملك ما لم تملكه لغات العالم القديم .

أفبعد هذا ، أليس من الغريب أن يشك أصحابنا من أهل هذا العصر الحديث في قدرة العربية واستيعابها للعلم الجديد ، ولما أسموه « تكنولوجيا » !

ذلك ما لا نرضاه لهم ، ولو عرف هؤلاء هذه اللغة وثقفوا منها ما ثقفوه من اللغات الغربية لغيّروا من رايهم ورجعوا الى الصواب .

ومن الغريب ان يكون اهل العلم من هذا النفر الذي لم يحذق العربية على معرفة حسنة بالانكليزية

او غيرها من اللغات الاعجمية غربية كانت أم شرقية. انهم يباشرون هذه اللغات حديثا وكتابة وهي وسائل عمل لهم ولا يبيحون لانفسهم ان يخرجوا على قواعدها واسسها ، ولكنهم يتساهلون مع أنفسهم حين يرتكبون الخطأ في العربية وحجتهم ان العربية صعبة وهي لغة لا تناسب العصر .

هذا خطأ كبير بل جهل مخيف ! فالى أين المصير ؟

ان العمل على رعاية العربية الجديدة بمصطلحاتها واستعمالاتها ينبغي أن نؤمن به ونخطط له نحن معاشر العرب ولا أخص قطرا واحدا .

قلت : العربية الجديدة واريد ان أؤكدها لاقرر انها مادة جديدة بالفاظها ومصطلحها واستعمالاتها ولعل شيئا من جدتها يتصل بنحوها وصرفها . هي جديدة لانها عزفت عن آلاف من الكلم القديم والاستعمال القديم ، والمصطلح الذي جرى عليه أهل العلم في القرون الخوالي . ومن أجل ذلك كان علينا أن نحرر المعجم الجديد الذي يشتمل على هذه اللغة الجديدة .

لعل العربية بدع بين اللغات في أنها لا تملك المعجم التاريخي كما لا تملك المعجم الجديد .

انها لا تملك المعجم التاريخي فلا يظن ظانٌ ان المطولات القديمة من المعجمات هي المعجمات

التاريخية . نعم انها تشتمل على كثير من فوائد المعجم التاريخي الذي نريده في هذه اللغة ، ولكنها ليست النموذج المراد . ان المعجم التاريخي شيء نعرفه في اللغات المتقدمة وهو ثمرة جهود كثيرة لعلماء كثيرين ارخوا فيه الالفاظ منذ نشأتها الى تاريخ معين يقرب من العصور الحديثة ، وان الباحث ليجد فيه صورة للتطور الذيعرض للغةمناللغات .

كأن مجمع اللغة العربية في القاهرة قد اثار هذه المشكلة منذ اكثر من ثلاثين سنة وقام نفر من اعضائه بشيء من هذا الجهد مستعينين بما أنجزه احد المستشرقين الالمان (فيشر) ، ولكنهم لم يصلوا الى شيء كبير في هذا الموضوع .

ثم ماذا عن المعجم الجديد ؟

ان أهل اللغة في عصرنا صنفان من اهل الجد والعزم ، صنف يرى ان العربية بخير ما دامت لا تخرج عن الكلم القديم والاستعمال القديم والنحو والصرف كما في المألوف من المصادر القديمة .

وهذه الطائفة من العلماء ترى ان يقال كذا ولا يقال كذا . ولقد فاتهم ان العربية واسعة وليس في طوقهم ان يلموا بأجزائها ، وينجم عن هذا ان كثيرا مما نهوا عنه أن يقال ، وعدوه خطأ ووهما ، بدا للباحثين في كلام العرب واشعارهم وكلام الله وحديث رسوله لغة فصيحة وكلام حسن عرفته العربية ولكنه غاب عن هؤلاء العلماء من اهل الفضل .

وصنف آخر عرف العربية معرفة جيدة واضاف الى معرفته هذه شيئا من المعرفة الجديدة مما جدّ في علم اللغة الحديث Linguistique

وقد بدا لهذا النفر من الباحثين ان العربية ليست بدعا بين اللغات فيكون الدارس لها في عصرنا كالدارس القديم همه ان يعرف ما في متون معروفة وحواش عليها تبين ان كثيرا منها لا يتصل بالعلم في ضوء ما جد من وسائل البحث اللغوي الحديث .

ويرى هؤلاء ان الجديد اللغوي يفرض علينا بحثا لغويا قائما على اسس علمية رصينة يتوزع شعبا عدة فيها الاصوات والنحو والابنية والاستعمال وان هذا اللفيف المجموع مادة علم اللغة في عصرنا .

ومن هنا كان لابد ان نُعنى بمعجم جديد لهذه اللغة العريقة يشتمل على هذه المادة الجديدة ، فيكون لنا علم متصل الحلقات . ان المعجم الجديدة حلقة أخيرة في سلسلة الدراسات اللغوية .

ولا أرى ان تكون مقولتي هذه حافزة لنفر من العلماء الذين قد يستقر في أذهانهم انها دعوى لعامية مرذولة وتنكر للفصيح ، وتقبل للاستعمالات النافرة وتوطين الناس على الخطأ والوهم .

ذلك ما استبعده حفاظا على اللغة واسسها والتوفر على مواطن الجمال فيها . وكيف يكون لنا هذا وفينا كتاب الله وتراث رائع مجيد ؟

خاتمـــة

هذه صفحات من العربيـــة التاريخية التي سلخت من عمرها قرونا طويلة وتقلبت عليها الاحداث وعايشت حضارات عدة واستطاعت ان تكون لغــة العالم المتحضر طوال قرون سلفت . انها لغة العرب في بواديهم وحواضرهم ثم لغتهم في اقاليمهم المختلفة، ثم لغة الدولة الاسلامية بين مشرق ومغرب . وهكذا أتيح لهذه اللغة ان يلهج بها غير ابنائها بل قل عكفوا عليها وأحبوها وا تخذوها لسانهم بل نسوا لغاتهم التي فطروا عليها فكانت العربية لغة المسلمين عامة. وليس بسبب ان هؤلاء الاعاجم اسلموا فاتخــذوا الاسلام دينا وحضارة وسلوكا فكانت العربية لسانا لهم بل يضاف الى ذلك ان هذه اللغة تملك من وسائل القوة والحيوية والجمال ما جعل هذه الانمـــاط الاعجمية تشغف بها وتحبها وتتخذ منها وســـيلة عيش وتفاهم وفكر وابداع .

ولم يكتب للغة من اللغات العامرة في التاريخ القديم أنها احتفظت بحيويتها خلال قرون طويلة على نحو ما حدث للعربية فلم تندثر ولم تمت وانما ظلت

حية متطورة مستجيبة لتبدل الظروف والاحوال . كانت لغة لانماط مختلفة من المحسوسات كما كانت لغة عالية للاعراب عن المعاني المجردة وللافصاح عن دقائق الفكر وخلجاته .

ولم يعرض لها ما عرض لغيرها من اخواتها من اللغات السامية ، تلك اللغات التي اندثر قدر كبير منها فامحت آثاره واوشك قدر ضئيل اخر منها ان يندثر ثم أطلت على مشارف العصر الحديث فكانت امام محنة آخذة بخناقها ذلك انها تجابه حضارة جديدة قائمة على العلم الحديث المتجدد المتطور فماذا عسى ان تكون حال هذه العتيقة العريقة ؟

في طوقنا ان نبعث فيها انماطا من حياة جديدة وهي جد متقبلة لهذا الجديد فهل ترانا حققنا كثيرا ؟

لعل الجواب أننا ما زلنا نجد في الطريق ، والصعاب كثيرة وما زال بيننا وبين «سلامة العربية» مسافة طويلة .

ولو ادركنا وجوه الحل فجودنا طرائق تعلم هذه اللغة الكريمة مفيدين من تقدم العلم الحديث ووسائله الفنية الجديدة لاستطعنا ان نجد الطريق ونحقق الرجاء ونشارك في بناء الحضارة الجديدة .

المحتويات

صدر من الموسوعة الصغيرة

١ ـ العرب والحضارة الاوربية ، د . فيصل السامر .
٢ ـ فلسفة الفيزياء ، د . محمد عبداللطيف مطلب .
٣ ـ الحقيقة الاشتراكية لحزب البعث العربي الاشتراكي عزيز السيد جاسم .
٤ ـ قضايا المسرح المعاصر ، سامي خشبة .
٥ ـ الصناعات البتروكيمياوية ومستقبل النفط العربي . محمد أزهر السماك .
٦ ـ الثورة والديمقراطية ، صباح سلمان .
٧ ـ دانتي ومصادره العربية والاسلامية ، عبدالمطلب صالح .
٨ ـ الطب عند العرب ، د . عبداللطيف البدري .
٩ ـ انغولا .. الثورة وأبعادها الافريقية ، حلمي شعراوي .
١٠ـ معالجات تخطيطية لظاهرة التحول الحضري ، د . حيدر كمونة .
١١ـ مصادر الطاقة ، د . سلمان رشيد سلمان .
١٢ـ التراث كمصدر في نظرية المعرفة والابداع في الشعر العربي الحديث ، طراد الكبيسي .
١٣ـ التقدم العلمي والتكنولوجي ومضامينه الاجتماعية ، د . نوري جعفر .
١٤ـ الثقافة والتنظيمات الشعبية ، عبدالغني عبدالغفور .
١٥ـ العوامل المحفزة لنمو الدخل القومي ، د . كاظم حبيب .

١٦- فن كتابة الاقصوصة ترجمة : كاظم سعدالدين .
١٧- الاعلام والاعلام المضاد ، صاحب حسين .
١٨- استثمار المواد الكيمياوية والعضوية الملوثة للبيئة ، طارق شكر محمود .
١٩- مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية ، د . هاشم الطعان .
٢٠- الانسان اخر المعلومات العلمية عنه ، ترجمة : كاميران قرهداغي .
٢١- الشعر في المدارس ترجمة : ياسين طه حافظ .
٢٢- من عصر البخار الى عصر الليزر ، د . اسامة نعمان .
٢٣- الاتصال والتغير الثقافي ، هادي نعمان الهيتي .
٢٤- المدخل الى الفكر الفلسفي عند العرب ، د . جعفر آل ياسين .
٢٥- الصهيونية ليست حركة قومية ، بديعة امين .
٢٦- الدفاع المدني الشعبي ، صالح مهدي عماش .
٢٧- النسبية من نيوتن الى انشتاين ، د.طالب ناهي الخفاجي
٢٨- فن التمثيل عند العرب ، د . محمد حسين الاعرجي .
٢٩- الموسيقى الالكترونية ، د . علي الشوك .
٣٠- دراسة في التخطيط الاقتصادي ، د . يحيى غني النجار
٣١- الرواية العربية والحضارة الاوربية ، شجاع مسلم العاني.
٣٢- نقد الفكر البرجوازي المعاصر ، ترجمة : يوسف عبدالمسيح ثروة .
٣٣- الطاقة وآفاقها المستقبلية ، د . عادل كمال جميل .

٣٤ـ فن الترجمة ، ترجمة د . حياة شرارة .
٣٥ـ صورة الكون ، د . محمد عبداللطيف مطلب .
٣٦ـ مدارس النقد الادبي الفرنسي المعاصر . نهاد التكرلي .
٣٧ـ النهضة ، د . كمال مظهر احمد .
٣٨ـ الحرب النفسية ، د . فخري الدباغ .
٣٩ـ الانسان والبيئة ، ترجمة عصام عبداللطيف احمد .
٤٠ـ في علم التراث الشعبي ، لطفي الخوري .
٤١ـ مساهمة العرب في علوم الحياة ، عادل محمد حسين الشيخ علي .
٤٢ـ العنصرية الصهيونية ، د . عبدالوهاب المسيري .
٤٣ـ المصادر الاساسية لتجربة الفنان التشكيلي المعاصر في العراق ، عادل كامل .
٤٤ـ سيكولوجية الطفل في مرحلة الروضة ، مدحت عبدالرزاق عبدالنبي .
٤٥ـ لمحات موجزة من تاريخ نضال الشعب العراقي ، صادق حسن السوداني .
٤٦ـ التكنولوجيا المعاصرة ، د . طه تايه ذياب ود . سامي مظلوم صالح .
٤٧ـ نظرية النظم . تاريخ وتطور . د . حاتم الضاعن .
٤٨ـ الطفل هذا الكائن العجيب ، د . ضياء الدين أبو الحب .
٤٩ـ في المسرح الشعري ، عبدالستار جواد .
٥٠ـ الكيمياء عند العرب . د . جابر الشكري .
٥١ـ نزعات انسانية في موسيقى بتهوفن . غانم الدباغ .
٥٢ـ نظرات في علم الوراثة . عبدالاله صادق .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ ببغداد
١٧١٤ لسنة ١٩٧٩

«المؤلف في سطور»

د . ابراهيم السامرائي

- ولد في العمارة سنة 1923 وانهى فيها دراسته الابتدائية والاعدادية .
- أنتسب الى دار المعلمين العالية وتخرج فيها سنة 1945
- عمل لفترة بالتعليم الثانوي
- التحق بالبعثة العلمية في فرنسا (السوربون) سنة 1948
- عاد من فرنسا سنة 1956
- عيّن مدرساً لفقه اللغة في كلية الاداب ومازال يعمل فيها
- ألف حوالي خمسين كتاباً في اللغة والنحو وحقق عدداً من كتب التراث العربي .
- من مؤلفاته
- الفعل زمانه وأبنيته
- لغة الشعر بين جيلين
- العربية بين أمسهاوحاضرها
- التوزيع اللغوي الجغرافي
- تنمية العربية في العصر الحديث
- نزهة الألبّاء للانباري تحقيق
- شعر الأحوص (جمع وتحقيق) .

الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول
مختلف العلوم والفنون والاداب

رئيس التحرير: موسى كريدي

الكتاب القادم :

الاسطورة

د. نبيلة ابراهيم

السعر ٥٠ فلسا دار الحرية للطباعة - بغداد